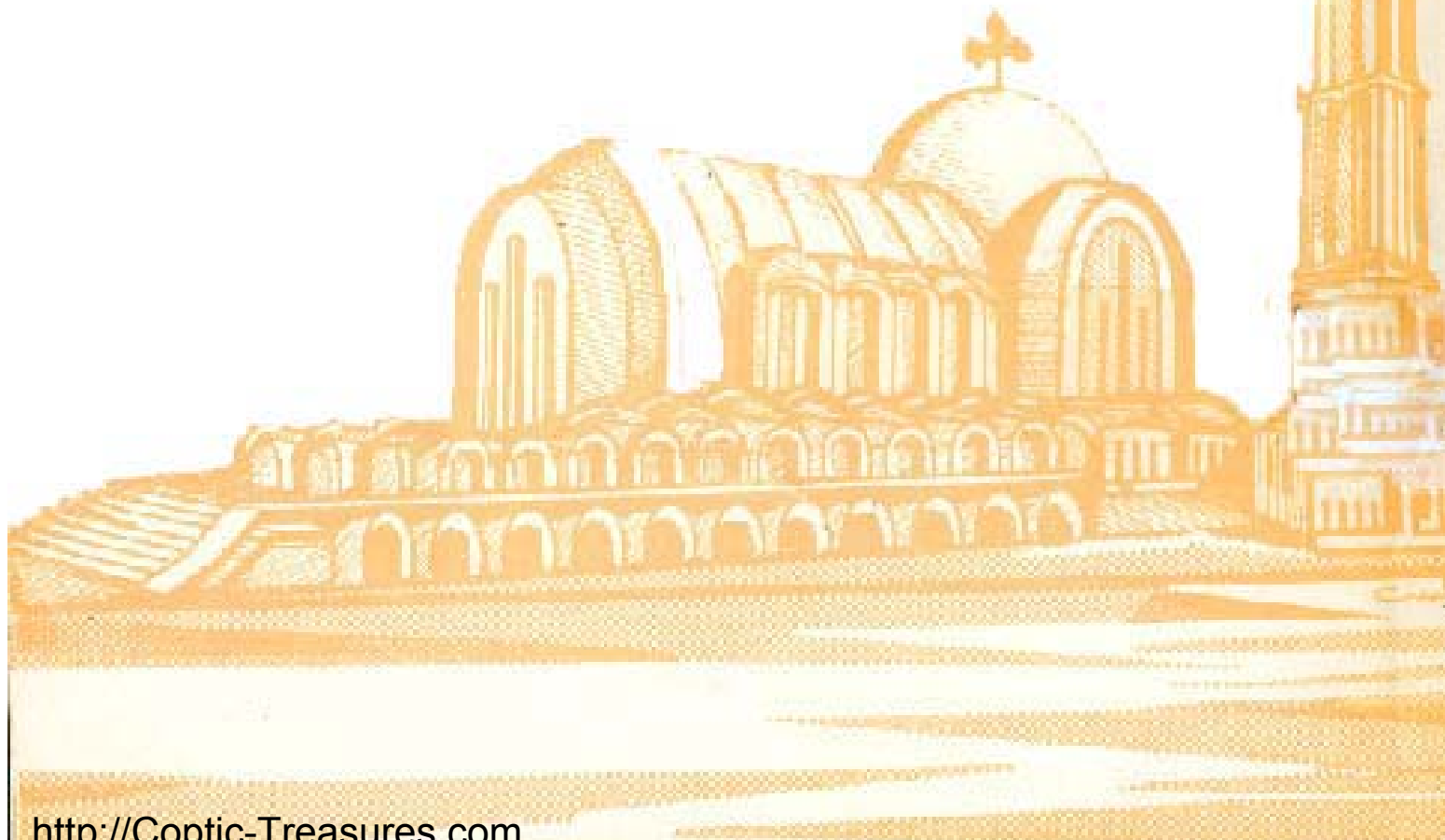


البيات نوراً الثالث

الحياة
التي

Life Of Hope

By H.H. Pope Shenouda III





عمارة حماكس القديس والغبطة
الابا شنودة الثالث
بابا الإسكندرية وبطرس وياقوف الكرازة المرقسية

قصة هذا الكتاب

كثيرون جداً يحتاجون إلى كلمة تعيد إليهم الرجاء ... يحتاجون إلى نافذة من نور، تبدد الظلمة التي تكتنف نفوسهم

نفوسهم تصغر أمام المشاكل التي تبدو معقدة ، وبلا حل ... وتزيد حروب الشيطان من المخاوف في عدم حلها ...

كذلك يظنون أنه لا فكاك من الخطايا التي استمرت معهم زماناً ، حتى صارت شبه مسيطرة عليهم ، يكررونها في كل اعتراف بلا توبة ، مهما حاولوا التوبة ...

هؤلاء يقولون مع داود النبي ما رده في المزمور الثالث :

« كثيرون يقولون لنفسي : ليس له خلاص يا إلهه » (مز ٣) .

وللأسف لا يكملون باقي المزمور وما فيه من رجاء ...

ولأهمية هذا الموضوع ، ولحاجة الكثيرين إليه ، تكلمت في عظات عديدة جداً عن الرجاء وودخل الرجاء ضمن عظات أخرى من الصعب أن أحصيها ، ولذلك لما أردت أن أجمع كل ما قلته في موضوع الرجاء ، بدا الأمر صعباً ... مما تسبب في تعطيل صدور هذا الكتاب الذي دخلت أجزاء من مقالاته في المطبعة ، وجمعت ... وانتظرت اخواتها ، وطال الانتظار ... وتحيرت ماذا أقدمه للطبع ، وماذا أتركه أو أرجئه؟؟

وأخيراً اكتفيت بهذه المقالات الخمس عشرة التي ضمها هذا الكتاب ، حتى يمكن أن يصدر الآن . على أن نستبقى المقالات الأخرى الخاصة بالرجاء ، لكي تنشر في جزء ثانٍ ، أو تضاف إلى هذا الكتاب عند إعادة طبعه بمشيئة الله .

والرجاء هو أحد الفضائل الثلاث الكبرى التي ذكرها الرسول في (١ كو ١٣) :

(١٣).

وأعنى بها : الإيمان ، والرجاء ، والمحبة .

ولقد أصدرنا لك كتاباً عن (حياة الإيمان) في بداية الثمانينات . وها هوذا كتاب عن
الرجاء . وبقي كتاب ثالث نصدره عن المحبة ... محاضراته كلها جاهزة ، لا تنقصها سوى
مراجعة بسيطة وتقديم إلى المطبعة ... بصلواتك .

وبهذا تكمل المجموعة إن شاء الله .

البابا شنودة الثالث



الرجاء

الرجاء هو احدى الفضائل الثلاث الكبرى التي ذكرتها معلمنا بولس الرسول في رسالته الأولى إلى كورنثوس حيث قال .. «الإيمان والرجاء والمحبة هذه الثلاثة» (١ كو ١٣ : ١٣) ، وهذه الثلاثة ترتبط بعضها ببعض الآخر فالإيمان يلد الرجاء ، لأن الذي يؤمن بالله ، إنما يكون له رجاء فيه ، والذي يكون له رجاء في الله ، يحبه وهكذا يصل إلى قمة العلاقة بالله في المحبة .

الرجاء قديم قدم البشرية ، بل أقدم منها ، فأول رجاء عرفه البشر ، هو رجاء في الخلاص ، حينما وعد الرب قائلاً لآدم وحواء « إن نسل المرأة سوف يسحق رأس الحية » (تك ٣ : ١٥) .

وظل هذا الرجاء في قلوبهم آلاف السنين حتى تحقق أخيراً في تجسد الرب ، وفي صلبه عن البشرية .

وحتى الذين لم ينالوا هذا الرجاء ، عاشوا فيه ، وكما قال معلمنا بولس « لم ينالوا المواعيد ، لكنهم نظروها من بعيد وصدقوها » (عب ١١ : ١٣) .

وهكذا رقدوا على رجاء ، إلى أن افتقدهم الرب وأرجعهم إلى الفردوس مرة أخرى .

على أن الرجاء كان موجوداً قبل آدم وحواء ، في قصة الخليقة الأولى ، كان هناك رجاء لتلك الأرض الخربة الخاوية المغمورة بالمياه ، وعلى وجه الغمر ظلمة (تك ١ : ١) .

وحقق الله لها هذا الرجاء حينما قال « ليكن نور فكان نور » . ورتب الله هذه الأرض الخربة ، فإذا بها في أجمل صورة ممكنة ، فيها الأشجار والأثمار والأزهار

والأطيار. ورأى الله أن كل شيء فيها حسن جداً. ولذلك مهما كانت الأرض خربة في يوم من الأيام ومهما كانت خاوية، ومهما كانت معمورة بالمياه، ومهما كانت مظلمة، فهناك رجاء أن الله يخرج منها هذه الصورة الجميلة من الطبيعة المملوءة بالجمال التي نراها الآن.

* * *

الرجاء إذن هو شيء هام في الحياة ولو فقد الإنسان الرجاء فقد كل شيء، لأن الإنسان الذي يفقد الرجاء، يقع في اليأس، ويقع في الكآبة، وتنهار معنوياته، ويقع في القلق، والاضطراب ومرارة الانتظار بلا هدف وقد يقع بذلك العموية في يد الشيطان، لذلك نقول إن الشيطان هو الذي يقطع الرجاء.

أما أولاد الله فباستمرار عندهم رجاء، يعيشون في الرجاء في كل وقت... في الضيقة يعيشون في رجاء، ومهما تعقدت الأمور، ومهما بدا أن الله قد تأخر عليهم، ومهما بدا كل شيء مظلماً، هناك رجاء.

* * *

وأولاد الله عندهم رجاء أيضاً في الحياة الأخرى، في العالم الآخر في تحقق وعد الرب من حيث ما لم تره عين وما لم تسمع به أذن ولم يخطر على بال إنسان. هذه هي الحياة الأخرى التي نجاهد على الأرض لكي ننالها. وعلى رأى معلمنا القديس بولس الرسول « إن كان لنا رجاء في هذا العالم فقط، فنحن أشقى جميع الناس » (١ كور ١٥).

وهناك رجاء أيضاً حتى للخطاة في التوبة، بل أشر الخطاة على الأرض لهم رجاء.

* * *

وهناك رجاء للص وهو على الصليب في أخطر ساعات حياته. وهناك رجاء لوزكا رئيس العشارين الذي كان يمثل قمة الظلم في عهده، وهناك رجاء للمجدلية التي كان فيها سبعة شياطين فإذا بها إحدى المريمات القديسات، وقد استحققت أن تكون مبشرة للأحد عشر بالقيامة. وهناك رجاء حتى للشجرة التي لم تثمر ثلاث سنوات، فقال الرب « انقب حولها وأضع زبلاً، لعلها تثمر فيما بعد » (لوقا ١٣ : ٨).

* * *

المسيحية تعطى رجاء حتى للقصة المرضوضة والفتية المدخنة .

القصة المرضوضة قادر الله أن يعصبا، والفتيلة المدخنة قادر الله أن يرسل لها ربحاً فتشتعل، ولهذا من جهة الرجاء قال الرب «شجعوا صغار النفوس». وأعطى في ذلك رجاء حتى للركب المخلعة، وحتى للأيدى المسترخية .

* * *

في المسيحية يوجد رجاء للأفراد، ويوجد رجاء للهيئات، ويوجد رجاء للكنائس ويوجد رجاء للبلاد، ويوجد رجاء للعالم كله .

* * *

لنا رجاء في افتقاد الرب للبشرية في كل وقت . هذا الرجاء لا يضعف أبداً عند المؤمنين مهما بدا الأمر صعباً وكيف ذلك ؟

* * *

لقد كان هناك رجاء ليونان النبي وهو في بطن الحوت . هل إنسان يكون في جوف الحوت ويكون له رجاء ؟ ولكن يونان رجع على ركبته وصلى وهو في جوف الحوت . وقال للرب «أعود فأرى هيكل قدسك». كان له رجاء، وقد تحقق .

وكان هناك رجاء حتى للثلاثة فتية وهم في أتون النار، ولدانيال وهو في جب الأسود .

* * *

وكان هناك رجاء حتى للعاقرة التي لم تلد، التي قال لها الرب في سفر اشعيا «ترنمي أيتها العاقرة، ووسعي خيامك، لأن نسلك سيرثون أمماً ويعمرون مدناً خربة» (اش ٥٤) .

كان هناك رجاء أعطاه لنا الرب في رمز الذين قاموا من بين الأموات .

حتى لعازر الذي قالت عنه أخته مرثا أنه قد أنتن (يو ١١) قدم لنا الرب رجاء في أن يقوم من الأموات .

* * *

وهناك رجاء قدمه الرب في شفاء الأمراض المستعصية ... في إعطاء البصر للعميان، والصحة للجدع، والعرج والمشلولين، وكل ذي عاهة، وصاحب اليد اليابسة، حتى

الإنسان الذي قضى ثمانى وثلاثين سنة إلى جوار البركة لا يجد من يلقيه فيها ، كان له رجاء أن يأتى له المسيح ويقول له «قم احمل سريرك وامش» (يوه) .

مهما كان الأمر مستعصياً ، ومهما كان الأمر صعباً ، ومهما بدا للناس معقداً ، هناك رجاء يقدمه الله .

ولعل الرب أعطانا مثلاً جيلاً في هذا حينما قال «غير المستطاع عند الله» بل صدقونى هناك آية أعمق من هذه جداً ، وهى قول الكتاب «كل شىء مستطاع للمؤمن» .

عبارة «كل شىء مستطاع» (مر ٩ : ٢٣) تعطينا رجاء لا حدود له .

وهكذا يقول بولس الرسول فى الرجاء «استطيع كل شىء فى المسيح الذى يقوينى» (فى ١٤ : ١٣) . عبارة كل شىء هى مدى أوسع جداً يعطينا فكرة أنه لا حدود للرجاء ، مادام لا حدود لقدرة الله ولمحبتة .

إذاً لا حدود للرجاء فى المسيحية .

والإنسان المسيحى يجد اختباراً لفضيلة الرجاء فيه ، حينما يقع فى ضيقة أو فى تجارب متنوعة ، أو فى آلام صعبة ، أو فى مشاكل تبدو لا حلول لها ، يعرف بالرجاء أن الرب عنده حلول كثيرة ، وأن الرب لا بد أن يأتى مهما بدا أمام الناس أنه قد تأخر .

صدقونى أننى فى بعض الأحيان كنت أعاتب أبى ومعلمى القديس داود النبى ، حينما كان يقول للرب «اسرع ولا تبطىء» .

لأن الرب يا اخوتى ليس عنده اسراع ولا ابطاء . الله يعمل ، ويعمل فى كل حين ، وهو لا يتأخر مهما ظن التلاميذ أنه قد مر الهزيع الرابع من الليل ولم يأت بعد . الرب لا بد سيأتى ، إذا كان عندنا إيمان ، نؤمن أن الله لا بد سيعمل وسيعمل بقوة ، وسيعمل فى الوقت المناسب .

أما عبارة التأخير ، فهى تحمل مفهوماً نسبياً عند البشر ، يظنون أنه قد تأخر ، ولكن

مواعيد الله هي هي ، تحددتها حكمته ، وتحددتها رؤيته الصادقة للأمور عنى حقيقتها .

فالله يعمل باستمرار، وإن ظننا في وقت من الأوقات أنه قد تأخر، يقول لنا المزمور في المزمور « انتظر الرب ، تقولى تشدد قلبك ، وانتظر الرب » (مز ٢٧ : ١٤) .

وهنا نعرف معنى الرجاء على حقيقته ...

إن الإنسان يرجو الرب و ينتظر الرب ، ليس في قلق ، ولا في ضجر ، ولا في تدمر ، ولا في شك .

ولكن ينتظر الرب ، وقد تشدد قلبه ، هو قوى القلب في الداخل ، قوى بالإيمان أن الرب يعمل ، لا أقول أن الرب سيعمل ، فهذا مستوى ضعيف . وإنما أقول أن الإنسان يكون عنده رجاء أن الرب يعمل فعلاً .

أنت لا تؤمن أن الله سيعمل في المستقبل ، وإنما ينبغي أن تؤمن أن الله يعمل حالياً . ولذلك يكون عندك رجاء ، فيما لا تراه من عمل الله ، ولكن توقن تماماً وتثق أن الله يعمل . إن الطائرة قد تبدو لمن يستخدمها لأول مرة أنها واقفة في الجو، بينما تكون في سرعة أكثر من ثمانمائة كيلومتراً في الساعة ، ولكنها تبدو واقفة ! وبعض المراوح الشديدة الحركة تبدو متوقفة ، وهي تكون في أقوى درجة من السرعة ، وكذلك الكثير من الأجهزة .

الله يعمل ، أنت لا تراه يعمل لكن تؤمن بذلك ، ويكون لك رجاء بنتيجة عمله التى سترها بعد حين .

في الضيقات ... الإنسان الذى يرجو الله ينفعه قول المزمور « إن يحاربنى جيش فلن يخاف قلبى ، وإن قام على قتال قفى هذا أنا مطمئن » .

ولماذا هو مطمئن ؟ لأنه يرجو عمل الله فيه ، ويرى كما كان أليشع يرى ، أن هناك جيوش الرب تحارب حول المدينة « وأن الذين معنا أكثر من الذين علينا » (٢مل ٦ : ١٦) .

ويقول مع المرنم «نجت أنفسنا مثل الصغور عن شخ الصيادين، اتفتح انكسر
ونحن نجونا» (مز ١٢٤).

* * *

الإنسان الذي عنده رجاء ، لا ينظر إلى الضيقات ، إنما ينظر إلى الله الذي ينتصر
على الضيقات . الذي قال « أنا قد غلبت العالم » و يظل فيه هذا الرجاء إلى آخر نسمة ، في
كل حين ، في كل حال ، في كل موقف ، الرجاء لا يفارقه .

وهذا الرجاء يعطى الإنسان سلاماً في القلب ، طمأنينة في الداخل ، فرحاً قلبياً على
أساس ، ولهذا يقول الرسول في الاصحاح الثاني عشر من رسالته إلى رومية « فرحين في
الرجاء » (رو ١٢).

* * *

الرجاء بأن الله لا يعسر أمر عليه وأنه قادر على كل شيء ، الرجاء في محبة الله
وفي مواعيد الله ، الرجاء في الله الذي قال « لا أهملك ولا أتركك » الله الذي قال « ها أنا
معكم كل الأيام وإلى انقضاء الدهر » الذي قال « نقشتكم على كفى » الذي قال
« إن أبواب الجحيم لن تقوى عليها .. الرجاء في الله الذي عمل في القديم ، والذي
يعمل كل حين ، الذي نقول له مثلما قالوا في القديم قم أيها الرب الإله وليتبدد جميع
أعدائك ، وليهرب من قدام وجهك كل مبغضى اسمك القدوس » .

الله الذي غلب العالم ، نرجوه أن يغلب العالم أيضاً مرة أخرى ، يغلب الاحداد
الذي في العالم يغلب الاباحية والمادية ، ويغلب الحقد والكراهية التي في العالم ،
ويغلب الانقسام والتفكك الذي في العالم ويغلب العنف واستخدامه الذي في
العالم .

* * *

هذا هو الإله الذي نرجوه ، الذي يعيد الأرض إلى صورتها الأولى . وأيضاً الله
الذي يقف إلى جوار أولاده باستمرار ، الذي رآه يوحنا في رؤياه وهو « في وسط المنائر
السبع ، وفي يمينه ملائكة الكنائس السبع » (رؤ ١ : ٢٠).

فالله ما يزال وسط أولاده ، وفي يمينه رعاة الكنائس وقادتها ، وهو يقول لنا أغنيته
الجميلة « لا يخطف أحد من يد أبي شيئاً » (يو ١ : ٢٩).

* * *

لنا رجاء في الله الذي قال عنه يوحنا الحبيب في رؤياه :

« أبصرت وإذا باب مفتوح في السماء » (رؤى ٤ : ١) .

فالإنسان الذي يعيش في الرجاء ، باستمرار ينظر باباً مفتوحاً في السماء ويرى الله واقفاً في هذا الباب يقول إنه يفتح ولا أحد يغلق » (رؤى ٣ : ٧) .

الله الذي يسعى لخلاصنا ، دون أن نسعى نحن ، والذي يحبنا أكثر مما نحب أنفسنا ، والذي يعرف الخير لنا ، أكثر مما نعرف الخير لأنفسنا الله ضابط الكل الذي يقود الكون كله والذي حياة العالم كله في يديه . هو يدبر الأمور حسب حكمته التي لا تحد ، نحن نرجو هذا الإله ، ونحن نغنى مع الرسول قائلين :

« كل الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون الله » (رؤى ٨ : ٢٨) . ونقصد الخير بالمقاييس الإلهية وليس الخير بمفاهيمنا البشرية . الله هذا صانع الخيرات ، هو الذي نرجوه . وهو الذي نعلق كل رجائنا عليه . وهو الذي نقول له في بعض صلوات القديس الإلهي « يا رجاء من ليس له رجاء . معين من ليس له معين » . ونقول في المزمور « الاتكال على الرب خير من الاتكال على البشر ، الرجاء ، بالرب خير من الرجاء بالرؤساء » (مز ١١٨) .

الرجاء في مواعيد الله الصادقة والرجاء في الحياة الأبدية الجميلة ، في القيامة السعيدة ، الرجاء الذي نعلقه لا في أمور العالم ، وإنما في ذلك الوطن السماوي ، « المدينة التي لها الأساسات التي صانعها وبارئها الرب » (عب ١١) .

الإيمان في حياة أخرى جديدة لا تعرف خطية ، ولا تعرف إثماً ، الإيمان في التجديد العجيب الذي نناله في السماء ، حيث ترجع إلينا الصورة الإلهية الأولى ، وفي وضع لا يخطيء فيما بعد ، الرجاء في الحرية التي ننالها من الرب ، بحيث تكون حرية تفعل الخير فقط ، ولا تعود تعرف الخطية بعد ، الإيمان بملكوت الله الذي نعيش فيه في ذلك الأبد ، ونعد أنفسنا له من الآن .

هذا هو الرجاء الحقيقي الذى نرجو فيه ما لا يرى ، لأن الأشياء التى ترى تدخل فى العيان ، وليس الرجاء . إنما نحن نرجو ما ننتظره بالصبر ، وليس ما نراه كما يقول الرسول « هذا الرجاء المفروض أن ندعو الجميع إليه » .

* * *

المفروض أن نقول لكل أحد : إن كل باب مغلق له ألف مفتاح ، والله يستطيع أن يفتح جميع الأبواب المغلقة . ونقول له إن كل ظلمة لا بد بعدها نور ، وكل مشكلة لها حل أو عشرات الحلول وكل ضيقة لها إله هو إلهنا الصالح الذى يخرج من الجاني حلاوة ، ومن الآكل أكلاً . والذى يحول كل الأمور إلى الخير ، كل الأمور التى تمر بنا فى حياتنا إن كانت خيراً ستصل إلينا خير وإن كان شراً فالله صانع الخيرات يحول الشر إلى خير .

* * *

لذلك نحن نعيش فى الرجاء فرحين باستمرار . السلام يملأ قلوبنا ، لأننا لا نعتمد على ذواتنا ولا على وسائط عالمية ، إنما نعتمد على الله الذى يعمل كل خير .

فى هذا الرجاء أحب أن نعيش جميعاً ، ككنيسة ترجو ملكوت الله وتنتظره ، وترجو عمل الله فيها فى كل حين ، ونؤمن بعمله ، وكعالم واسع الأرجاء فى كل قاراته ، يرجو من الله أن يسود السلام فى كل مكان ويسود الخير فى كل مكان ، ويرجع الحب إلى قلوب الناس جميعاً ، فيرتبطون به ، ويعيشون به وكما قال المسيح « بهذا يعرف الناس أنكم تلاميذى إن كان لكم حب بعضكم نحو بعض » .

هذا الرجاء إن لم يكن فينا فلنطلبه كعطية مجانية من الله ، الذى يملأ القلوب بسلامه وبرجائه . له المجد الدائم من الآن وإلى الأبد آمين ...

* * *

حياة الرجاء يلزمها الثقة

حياة الرجاء يلزمها الثقة فى الله ، والثقة فى مواعيده ، وفى عمله وفى محبته لك ولللكل ، وفى حكمة تدبيره .

لكى يمتلئ قلبك بالرجاء ، ينبغي أن تثق بأن الله يحبك أكثر مما تحب نفسك ،
وأنه يعرف ما هو الخير لك أكثر مما تعرف أنت بما لا يقاس . وأن كل تدابير الله من
جهتك هي في عمق الحكمة والخير، مهما بدت لك غير ذلك من خلال الشك ...

* * *

ولا بد أن تعلم أنك في يد الله وحده ، ولست في أيدي الناس ، ولا في
أيدي التجارب والأحداث ، ولا في أيدي الشياطين ...

أنت في يد الله وحده . والله قد نقشك على كفه (إش ٤٩ : ١٦) . وقد يظل
عليك بجناحيه (مز ٩٠) ويحرسك الليل والنهار، ويحفظ دخولك وخروجك (مز
١٢٠) . ومن محبته لك ، دعاك ابناً له (١ يو ٣ : ١) . وهو الراعى الذى يراعى فلا
يعوزك شيء (مز ٢٣ : ١) . نحن كلنا شعبه وغنم رعيته . ولا يمكن لله كراعٍ صالح
أن يفشل عن غنمه . ولا يمكن له كأب أن يفشل عن أولاده .

* * *

أما إن كانت لديك مشكلة ، فيرجح جداً أن تنتظر الرب . ولا بد أنه سينقذك
منها . فهذه نصيحة مباركة يقدمها لنا أحد مزامير صلاة باكر، يقول فيها المرتل :
« انتظر الرب . تقوّ وليتشدد قلبك ، وانتظر الرب » (مز ٢٦ [٢٧]) .

والنصيحة التي يقدمها لنا هذا المزمور ، ليس مجرد أن ننتظر الرب ، وإنما أن ننتظره
في قوة ، ونحن متشددون في الداخل ...

لا ننتظر الرب في ضيقة ، أو في ضجر وتذمر واحتجاج : لماذا لم يعمل الرب حتى
الآن ؟ أين محبته ؟ أين عمله ؟! . ولا ننتظر ونحن نشك في عمل الله ، أو نشك في
قيمة الصلاة وفعاليتها!! ولا ننتظر الرب في ضعف داخلي ، وفي انهيار، وقد فقدنا
معنوياتنا!! كلا ، فكل هذه المشاعر ضد فضيلة الرجاء... فالإنسان المضطرب أو
اليائس أو الخائف أو المنهار، يدل على أنه فاقد الرجاء... لأن الذى ينتظر الرب في
رجاء ، إنما يمنحه الرجاء قوة . وكما قال إشعياء النبى :

« وأما منتظرو الرب ، فيجددون قوة . يرفعون اجنحة كالنسور . يركضون
ولا يتعبون . يمشون ولا يعيون » (إش ٤٠ : ٣١) .

فما معنى عبارة « يجددون قوة » ؟ معناها انه كلما حاربهم الشيطان بالقلق أو بالضعف والاضطراب ، تتجدد القوة فيهم من تذكيرهم لمواعيد الله الصادقة ، وصفاته الإلهية المحبوبة باعتباره الأب والراعى والحافظ والساتر والمعين ... الله الخنون ، المحب ، صانع الخيرات ، الذى لا يغفل ولا ينام ... فكلما يتذكرون صفة من هذه الصفات تتجدد القوة فيهم ، ويرفعون أجنحة كالنسور .

إن منتظر الرب يثق ثقة لا تحد بمحبة الله الفائقة للبشر ، وبحكمة الله التى هى فوق ادراكنا البشرى ...

يثق ان الله يعطينا باستمرار دون أن نطلب ، وقبل أن نطلب . فكم بالحري إن طلبنا ... وهو يثق أيضاً أن الله يعطينا ما نفعنا ، وليس حرفية ما نطلبه . لأنه ربما تكون بعض طلباتنا غير نافعة لنا ... وهنا تظهر حكمة الله فى محبته ...

لذلك فى حياة الرجاء ، لا بد أن تثق بحكمة الله فى تدبيره لحياتك

لا تطلب وتصبر . إنما اطلب وقل : لتكن مشيئتك ...

وحيثما تقول : « لتكن مشيئتك » ليكن ذلك بفرح ، بغير ألم ولا حزن .

هناك أمور كثيرة لا تدرىها . وهى معروفة ومكشوفة أمام الله .

ربما الذى تطلبه ، لا يكون مناسباً لك ولا نافعاً لك . وربما الوقت الذى تحدده ، يعرف الله تماماً أنه غير صالح ، ويرى أن تأجيل الاستجابة أفضل ... لذلك تواضع ، واترك لحكمة الله أن تتصرف . وانتظر الرب فى ثقة ...

أليس من المخجل أننا نثق بذكائنا وفطنتنا أكثر مما نثق بالله !

إننا نضع حلولاً للأمور ، واثقين أنها أفضل الحلول ، أو أنها الوحيدة النافعة . وربما يكون فى ذهن الله حل آخر لم يخطر لنا على بال ، هو أفضل بما لا يقاس من كل تفكيرنا . ليتنا إذن نثق بالله ... ومنتظر حله فى رجاء .

أمور تساعد على الثقة

وكما نثق بمحبة الله وحكمته ، نثق أيضاً بمواعيده المليئة بالرجاء ...

نثق بوعده الصادق « ها أنا معكم كل الأيام وإلى انقضاء الدهر » (متى ٢٨ : ٢٠) . نثق بقوله « لا تخف لانى معك » (تك ٢٦ : ٢٤) « لا أهملك ولا أتركك . تشدد وتشجع » « لا يقف إنسان فى وجهك كل أيام حياتك » (يش ١ : ٥ ، ٦) « تشدد وتشجع . لا ترهب ولا ترتعب ، لأن الرب إلهك معك حيثما تذهب » (يش ١ : ٩) « لا تخف أيها القطيع الصغير » (لو ١٢ : ٣٢) « ... أنا معك ، ولا يقع بك أحد ليؤذيك » (أع ١٨ : ١٠) « يحاربونك ولا يقدرُونَ عليك ، لانى أنا معك - يقول الرب - لأنقذك » (أر ١٩ : ١٩) .

وما أكثر عبارات الرجاء التى تحفل بها المزامير ...

ليتك تجمع هذه الآيات وتقرأها أو تتذكرها كلما كنت فى حاجة إلى الرجاء فى حياتك . يكفى أن تسترجع مثلاً مزمو ٩٠ (٩١) أو ١٢٠ (١٢١) حيث يقول لك الوحي الإلهى : « يسقط عن يسارك ألوف ، وعن يمينك ربوات . وأما أنت فلا يقتربون إليك . بل بعينيك تتأمل ، ومجازاة الخطاة تبصر » « لأنه يوصى ملائكته بك ليحفظوك فى سائر طرقك ... » « تطأ الأفعى وملك الحيات ، وتسحق الأسد والتنين ، لأنه على اتكل انجيه . أستره لأنه عرف اسمى » (مز ٩٠) « لا يسلم رجلك للزلل ... الرب يحفظك » « الرب يحفظك من كل سوء . الرب يحفظ نفسك . الرب يحفظ دخولك وخروجك » (مز ١٢٠) .

كلها آيات تبعث الرجاء فى النفس ، وتقوى القلب فى الداخل

ويزيد الرجاء فيك أيضاً ، تذكرك معاملات الله لقديسيه ...
إن تذكرت كل هذا ، يمتلىء قلبك بالرجاء ، وتنتظر الرب فى ثقة .



كُلُّ الْأَشْيَاءِ
تَعْمَلُ مَعًا
لِلْخَيْرِ

(رو ٨: ٢٨)

كثير من الناس تمر عليهم التجارب والضيقات، فتعصرهم عصراً، ويقعون في الكآبة الشديدة، وربما في اليأس. وهؤلاء يريحهم قول الكتاب:

« كل الأشياء تعمل معاً للخير، للذين يحبون الرب » (روا: ٢٨).

والكتاب المقدس حافل بقصص كثيرة معزية في هذا المجال:

قصة يوسف الصديق

إنسان يقسو عليه اخوته، ويلقونه في بئر، ثم يبيعونه كعبد لتجار من الاسماعيليين. وبعد أن يخلص لسيده كل الاخلاص، وينجح في عمله جداً، تلتق ضده تهمة رديئة من امرأة سيده، ويلقى في السجن. وتطول به الأيام في سجنه...

ولكن كل هذه الأمور، كانت تعمل للخير.

فلولا التهمة التي أوصلته إلى السجن، ما كان خبره يصل إلى فرعون، فيجعله وزيره الأول، والثاني في المملكة.

وطبعاً لولا قسوة اخوته، ما كان قد بيع إلى بيت فوطيفار. ولولا أن امرأة فوطيفار كانت خاطئة، ما كانت تشتيه، ثم تلتق له التهمة التي أوصلته إلى السجن. ولولا سجنه ما كان قد تعرف على رئيس سقاة فرعون الذي أخبر فرعون بقدرته على تفسير الأحلام، فاستدعاه فرعون. وخرج من السجن إلى المملكة (تك ٣٩ - ٤١).

* * *

وبدون كل هذا، ما كان اخوته قد تابوا، وبكوا، واعترفوا بخطيئتهم، وعادت المحبة إلى الأسرة، ونجوا من المجاعة، واجتمعوا كلهم في مصر...

المشكلة أن الناس تحصرهم المشكلة، ولا يكون لهم الرجاء في أنها ستؤول إلى الخير.

يقفون عند البداية التي تبدو سيئة أو مؤلمة ، ولا يتابعون العمل الإلهي ، الذي يحول الشر إلى خير، والذي يخرج من الجاني حلاوة (قض ١٤ : ١٤) .

لاشك أن قصة يوسف الصديق ، هي درس في الرجاء ، وفي أن كل الأشياء تعمل معاً للخير.

نتدرج إلى نقطة أخرى تبدو غريبة وعجيبة ، وهي :

خطية آدم

إنها خطية ، جرت على العالم ما لا يحصى من الكوارث . وبها دخلت الخطية إلى العالم ، وبخطية الموت (رو ٥ : ١٢) .

ومع ذلك ، فإن الله الذي يخرج من الجاني حلاوة ، استطاع أن يجعل كل الأمور تعمل معاً للخير.

وكنتيجة لذلك عرفنا عملياً محبة الله لنا (يو ٣ : ١٦) . وبركات الكفارة والفداء .

ولو كان آدم لم يخطيء ، لبقى في الفردوس . في جنة يأكل فيها ويشرب ، ويعيش مع الحيوانات والطيور والأسماك ... أما الآن ، فقد صار لنا الملكوت بكل ما يحمل من بركات غير مرئية ، فيها ما لم تره عين ، وما لم تسمع به أذن ، وما لا يخطر على قلب بشر» (١ كو ٢ : ٩) .. ولنا فيه عشرة الملائكة القديسين ...

وهذا يذكرنا بنقطة أخرى عجيبة وهي :

الموت

كل الناس يكرهون الموت ، ويرونه سبباً للحزن ! ويلبسون لأجله السواد ، ويقابلونه بالدموع والبكاء ... ولكنه أيضاً من الأمور التي تعمل للخير...

فالموت هو الطريق إلى حياة أفضل ، وإلى مستوى أعلى ستؤول إليه البشرية ...

حيث في القيامة ، سنقوم بأجساد نورانية روحانية ، نقام في مجد بأجساد سماوية
يمكنها أن ترث الملكوت (١ كور ١٥) ... ولولا الموت لبقينا في هذا الجسد المادى ...
أليس الموت أيضاً يعمل معاً للخير .

فلنتأمل قصة القديس الأنبا أنطونيوس ، وموت أبيه .

كان موت أبيه درساً عميقاً له في فناء الحياة الدنيوية وبطلانها . ولقد نظر الشاب
أنطونيوس إلى أبيه الميت ، وقال له « أين هي عظمتك وسلطانك ؟! لقد خرجت من
الدنيا على الرغم منك . ولكنى سأخرج منها بارادتي ، قبل أن يخرجونى مثلك
كارهاً » ... وكانت بداية الحياة الرهبانية ...

الأمراض

المرض آفة يجاربها الناس . ويهربون منها إلى الطب والدواء .. ومع ذلك فإن
الأمراض « تعمل معاً للخير ، للذين يحبون الرب » (روم ٨ : ٢٨) ...

أمراض كثيرة قادت إلى التوبة ، وفعلت ما لم تفعله أعمق العظات ...

وبخاصة الأمراض الخطيرة والمؤلمة .. كم قد أدخلت كثيرين في عهد مع الله ، وفي
نذور قدموها إلى الله ، وفي حياة جديدة مع الله ، أو أدخلتهم في توبة واستعداد
للموت ... وهكذا كانت تعمل معاً للخير .

وأمراض قادت الناس إلى الصلاة وإلى الصوم .

وإلى زيارة الأماكن المقدسة ، والتشفع بالملائكة والقديسين ، وإلى إقامة
القداسات ، والقيام بأعمال الرحمة نحو الفقراء والمساكين .

وهكذا كما استفاد المريض نفسه اقترباً إلى الله ، استفاد أيضاً أقاربه ومحبيه فوائده

روحية عديدة ...

بل الأمراض كانت نافعة للقديسين ، لإشعارهم بضعفهم ومنع المجد الباطل عنهم .

وفي ذلك يقول القديس بولس الرسول « ولكي لا ارتفع بفراط الإعانات ، أعطيت شوكة في الجسد . ملاك الشيطان ليلطمني لئلا أرتفع » (٢ كو ١٢ : ٧) .

وقد صلى بولس ثلاث مرات ، ليشفيه الله من ذلك المرض . ولكن الله قال له « تكفيك نعمتي » . واستبقى مع بولس هذه الشوكة التي في الجسد ، لأنه - تبارك اسمه - كان يعرف كم تعمل مع قديسه للخير ، وكم تجلب له من اتضاع قلب ...

وقصة القديس بولس مع المرض ، تذكرنا بيعقوب أبي الآباء .

لقد صارع مع الله وغلب (تك ٣٢ : ٢٨) ، ونال البركة . ومع ذلك ضرب الله حق فخذه فانخلع . وظل يجمع على فخذه (تك ٣٢ : ٢٧ ، ٣١) . وبقي هذا المرض معه ، كعطية من الله ، يعمل معه للخير ، ويهبه الاتضاع إذ يشعر بضعفه ، لئلا يرتفع قلبه بسبب أنه نال البركة ، وأنه صارع مع الله وغلب ...

تَجْرِبَةُ أَيُوبَ

لعل إنساناً يسأل : لماذا هذه التجربة تحل على إنسان قديس ، شهد له الله مرتين ، بأنه « رجل كامل ومستقيم ، وليس مثله في الأرض » (أي ١ : ٨) (أي ٢ : ٣) ...

والحقيقة أن هذه التجربة كانت للخير من عدة نواح :

★ كانت التجربة لخير أيوب ، وأوصلته إلى الإِتضاع .

كان محارباً بشيء من المجد الباطل ... كان باراً ، ويعرف عن نفسه أنه بار . ولهذا قال « لبست البر فكساني . كجبة وعمامة كان عدلي » (أي ٢٩ : ٩) . وقيل عنه إنه « كان باراً في عيني نفسه » (أي ٣٢ : ١) ... فكانت التجربة لازمة له ، لتعمل معه للخير ، توصله إلى انسحاق القلب ، وإلى معرفة الله . ولما وصل إلى عبارة « أندم في التراب والرماد » (أي ٤٢ : ٦) ... رفع الله عنه التجربة .

* وكانت التجربة نافعة لأصحاب أيوب الثلاثة :

ذلك لأنهم كانوا «معزين متعبين» (أى ١٦ : ٢) . وقد استذنبوا أيوب وأساءوا إليه (أى ٣٢ : ٣) . وحتى من جهة الله ، لم يتكلموا عنه بالصواب (أى ٤٢ : ٨) . فكانت التجربة لازمة لهم ، لتصحيح مفاهيمهم الروحية . وقد قادتهم إلى التوبة «واصعدوا محرقات لأجل أنفسهم» (أى ٤٢ : ٧) .

* وكانت التجربة نافعة للعالم كله .

تلقى بها العالم درساً فى الصبر، كما قال القديس يعقوب الرسول «خذوا يا اخوتى مثلاً لاحتمال المشقات والأناة... ها نحن نطوب الصابرين . قد سمعتم بصبر أيوب ، ورأيتم عاقبة الرب ..» (يع ٥ : ١٠ ، ١١) .

* وحتى تجربة أيوب ، من الناحيتين العائلية والمادية ، كانت نافعة له .

فقد «زاد الرب على كل ما كان لأيوب ضعفاً... وبارك الرب آخرة أيوب أكثر من أولاه» (أى ٤٢ : ١٠ ، ١٢) . أعطاه الرب ضعف ما كان له من الخيرات المادية . ووهبه الرب بنين وبنات «ولم توجد نساء جميلات ، كبنات أيوب فى كل الأرض» (أى ٤٢ : ١٥) . ووهب الرب أيوب عمراً طويلاً ، «فعاش بعد التجربة ١٤٠ سنة ، ورأى بنيه وبنى بنيه إلى أربعة أجيال» ...

وهكذا كانت التجربة لخيره ، لما احتملها .

* وكانت تجربة أيوب خجلاً للشيطان .

أو كانت هزيمة جديدة له ، لأن الشيطان قد لا يخجل من أخطائه . لذلك نقول كانت هذه التجربة سبب خزى له . فتعبير «خزى» أكثر موافقة للمعنى ...

وهكذا كانت تجربة تعمل معاً للخير لكل الأطراف ...

التجارب عموماً

يخاف البعض من التجارب ، وقد يضطرب لها . بينما يقول الرسول :

« احسبوه كل فرح يا اخوتي ، حينما تقعون في تجارب متنوعة » (يع ١ : ٢) .

المسألة تحتاج إلى ثقة في عمل الله معنا أثناء التجربة ، وكيف يجعلها تؤول إلى خيرنا . وهنا نرى القديس يعقوب الرسول ، لا يدعونا فقط إلى الاحتمال والصبر ، وإنما بالأكثر يدعونا إلى الفرح بالتجارب .

وهكذا ندخل في حياة الفرح الدائم . في النعمة نفرح ، وفي التجربة أيضاً نفرح .
ونقول :

المرا الذي يختاره الرب لي ، خير من الشهد الذي اختاره لنفسي ...

نقول كل طرقتك يارب ، بحكمة قد صنعتها ... كله للخير ...

هيرودس أراد أن يقتل المسيح وهو طفل ،

فصار هذا خير لمصر لما جاءها المسيح .

بارك الرب أرض مصر ، وصارت لنا مقدس فيها . وسقطت كثير من الأصنام (اش ١٩ : ١٩-٢٢) وكانوا حينما يطردون العائلة المقدسة من بلد بسبب سقوط الأصنام ، تذهب إلى بلد مصرى آخر . فكثرت البلاد التي تقديست بزيارة العائلة المقدسة لمصرنا ، وصار ذلك تمهيداً لانتشار الإيمان المسيحي فيها ...

بتذكرنا لكل هذا ، نسعد بكل ما يحدث لنا ، مؤمنين أنه :

إن لم يكن الأمر خيراً في ذاته

فلا بد سيكون خيراً في نتيجته

خذوا كمثال : متاعب داود من شاول الملك .

لقد طارده من مدينة إلى مدينة، ومن بزية إلى أخرى . وعاش بسببه هارباً في البرارى والقفار، يترصده الموت في كل خطوة . ولكن كل ذلك التعب أعده لتحمل مسئوليات الملك فيما بعد . إذ نضج داود سناً وشخصية . وصار جبار بأس ، كثير الاحتمال .

يعرف كيف ينتظر الرب بإيمان ويؤمن بتدخله .

والضيقات التى احتملها ، صارت نبعاً لمزاميره .

يغنيها على العود والقيثار والمزمار . وصارت ينبوعاً لتأملات روحية وصلوات عميقة ، تصليها الأجيال من بعده . وترى فيها كيف يختلط الطلب بالشكر بالإيمان... وأعطانا أسلوباً نصلى به ونحن فى وقت الألم والضيقة . وصار داود رجل صلاة ، صقلته التجارب ، وصاحب خبره بالعشرة مع الله .

ولو عاش داود مدلاً ، ترى ماذا كانت شخصيته ستكون !؟

الضيقات لو لم تنته إلى خير على الأرض ، فعلى الأقل ستعد لنا أكاليل يهبها لنا فى ذلك اليوم الديان العادل .

إن الضيقات هى مدرسة للصلاة .

ربما حياة التمتع تبعدنا عن الله . أما حياة الألم فإنها تقربنا إليه . فتصير صلواتنا أعمق وأكثر، وتصير أصوامنا أكثر روحانية . كما نقرب إلى الله بالتوبة والمصالحة معه ، فنرجع إليه .

إن الضيقة التى وقع فيها اخوة يوسف ، جعلتهم يتذكرون خطيئتهم إليه « وقالوا بعضهم لبعض : حقاً إننا مذنبون إلى أئينا ، الذى رأينا ضيقة نفسه لما استرحنا ولم نسمع له . لذلك جاءت علينا هذه الضيقة... فهوذا دمه يُطلب (منا) » (تك ٤٢ : ٢١ ، ٢٢) .

حتى سقوط الناس في الخطية ، كان يؤول بالتوبة في شخير .

عاش أوغسطينوس في الخطية زمناً طويلاً ، بكت عليه فيه أمه القديسة مونيكا ...
ثم تاب أوغسطينوس ، وكان من نتائج حياته الأولى كتابه الرائع عن اعترافاته ، وهو
كنز روحي ، وسبب منفعة روحية للملايين ، يعرفنا كيف يعترف الإنسان علناً ،
ويعترف حتى بخطاياها وهو طفل أو رضيع ...

وبالمثل يمكن أن نتحدث عن خطية داود النبي .

كيف أوصلته الخطية إلى حالة عجيبة من انسحاق النفس ، قال فيها « ابلل في
كل ليلة سريري . بدموعي ابل فراشي » (مز ٥٠) . وكيف اعترف إلى الرب قائلاً
« لك وحدك أخطأت ، والشر قدامك صنعت ... قلباً نقياً اخلق فيّ يا الله وروحاً
مستقيماً جدده في أحشائي » ... إلى آخر ما حواه المزمور الخمسون ، مزمور التوبة ، وما
حوته باقي مزاميره من مشاعر الانسحاق ...

كان ملكاً عظيماً ، محترماً ومبجلاً من الكل . ولكن الخطية أذلته ، فقال :

« خير لي يارب أنك أذلتني ، حتى أتعلم وصاياك » (مز ١١٩) .

وحيثما أهانه شمعي بن جيرا إهانة مؤلمة ، وهو هارب من أبشالوم ، لم يسمح
لأنصاره أن ينتقموا من هذا الإنسان ، بل قال في اتضاع « دعوه يسب . لأن الرب قال
له : سب داود ... لعل الرب ينظر إلى مذلتى » (٢ صم ١٦ : ١٠) .

وبالمثل ما استفاده خاطيء كورنثوس من خطيئته وعقوبته .

كم أوجد فيه ذلك من الحزن والبكاء ، حتى أن القديس بولس الرسول في رسالته
الثانية إلى أهل كورنثوس ، أمرهم أن يمكنوا له المحبة « لئلا يبتلع مثل هذا من الحزن
المفرط » (٢ كو ٧ : ٧) ... وكان درساً لغيره ، ودرساً للمدينة كلها في أن « يعزلوا
الخبث من وسطهم » (١ كو ٥ : ١٣) .

سقوط إنسان في خطية ، تدعوه إلى الشفقة على الذين يسقطون .

لأنه قد أدرك بالخبرة ، قوة حروب الشياطين ، وسهولة السقوط في الخطية التي «طرحت كثيرين جرحى ، وكل قتلها أقوىاء» (أم ٧ : ٢٦) . ولذلك يقول القديس بولس الرسول « اذكروا المقيدون كأنكم مقيدون معهم ، والمذلين كأنكم أنتم أيضاً في الجسد» (عب ١٣ : ٣) .

والسقوط أيضاً يكشف للإنسان ذاته وضعفه .

وهذا يؤول إلى الخير ، إذ يجعله يكون أكثر حرصاً وتدقيقاً في المستقبل ، ويبعد عن التهاون . كما أن اكتشاف ضعفه يعطيه فرصة للرد على كل فكر كبرياء أو افتخار يحاربه فيما بعد .

لذلك عيشوا باستمرار في بشاشة وفرح .

« افرحوا في الرب كل حين » (في ٤ : ٤) .

في كل ما يحدث لكم قولوا : إننا تحت رعاية الله محب البشر ، الله الذي يحبنا أكثر مما نحب أنفسنا ، والذي يعرف خيرنا أكثر مما نعرفه ... الله الذي يسخر جميع الأمور لكي تعمل من أجل خيرنا ... الذي جعل قوانين الطبيعة أيضاً تعمل معاً للخير ، والذي خلق الحيوانات والطيور والنباتات أيضاً لأجل خيرنا . وخلق الهواء والشمس والقمر والنجوم من أجلنا ... كلها تعمل معاً للخير ، من أجل راحتنا وسعادتنا .

فلنشكر الله الذي جعل كل الأشياء تعمل معاً للخير ، لأجلنا .

الله صانع الخيرات ، الذي قيل عن ملائكته « أليسوا جميعاً أرواحاً خادمة ، مرسله للخدمة لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص » (عب ١ : ١٤) . ولأجلنا أيضاً عين الرب ، رباً في الكنيسة « أعطى البعض أن يكونوا رسلاً ، والبعض أنبياء ، والبعض مبشرين ، والبعض رعاية ومعلمين . لأجل تكميل القديسين ، لعل الخدمة ، لبنيان جسد المسيح » (أف ٤ : ١١ ، ١٢) .

عش سعيداً مهما حدث لك . قل : كله للخير .

بهذا يكون إنسان الله خالياً من كل الأمراض النفسية . خالياً من الكآبة، والاضطراب، والحزن السيء، والتعقيد، واليأس... بل باستمرار يملك السلام على قلبه... السلام القائم على الإيمان بالله وعمله...

ولكن كل ذلك على شرط واضح في الآية ، وهو « كل الأشياء تعمل معاً للخير، للذين يحبون الرب » (رو ٨ : ٢٨) .

إذن الشرط هو : أن تكون ممن يحبون الرب .

لأن هناك أناساً لا تعمل الضيقات معهم للخير: بل ربما الضيقة تسبب له ألواناً من التذمر والتعب والتجديف واليأس .

هناك أناس لا يحبون الرب المحبة التي تجعلهم يثقون به ويمواعيده وبتدخله وبحلوله . ليس لديهم الإيمان الكافي ، لذلك تعصرهم الضيقة ، وتجعل نفوسهم متأزمة معقدة ، تعيش في رعب المشكلة ، وليس في حلها .

كلمات فى الرجاء

ليتنا بدلاً من أن ننظر إلى الحاضر المتعب الذى أمامنا ، ننظر بعين الرجاء إلى المستقبل المبهج الذى فى يد الله .

كل مشكلة تبدو معقدة أمامنا ، لها عند الله حلول كثيرة .
وكل باب مغلق ، له فى يد الله مفتاح بل مفاتيح عديدة ...
هو الذى يفتح ولا أحد يغلق (رؤ ٣ : ٧) .

الرجاء يمنع الخوف ، ويمنع القلق والاضطراب ، ويبعث الاطمئنان .
بل أننا نكون « فرحين فى الرجاء » (رو ١٢ : ١٢) .

لا ننظر إلى المتاعب مجردة ، بدون عمل الله ، الذى يقدر أن يحول الشر إلى خير...

الله قادر أن يحول كل مجريات الأمور ، فى اتجاه مشيئته .

الذى لا يستطيعه الضعف البشرى ، تقدر عليه قوة الله .
والذى لا يستطيعه حكمة الناس ، تقدر عليه حكمة الله .

ثق أنك لست وحدك . أنت محاط بمعونة إلهية .
وقوات سماوية تحيط بك ، وقديسون يشفعون فيك .



تَعَالُوا إِلَيَّ
يَا جَمِيعَ الْمُتَعَبِينَ
وَالثَقِيلِي الْأَحْمَالِ
وَأَنَا أُرِيحُكُمْ

(متى ١١: ٢٨)

كل إنسان في الدنيا له متاعه الخاصة ، سواء كانت متاعب ظاهرة للأخريين ، أو مكتومة في القلب ، سواء كانت متاعب روحية ، أو متاعب نفسية ، أو متاعب جسدية ، أو متاعب عائلية أو اجتماعية .

والسيد المسيح قد جاء من أجل التعابى .

جاء « يطلب ويخلص ما قد هلك » (متى ١٨ : ١١) . جاء ليخلص العالم من خطيئته كما قال اشعيا النبي « كلنا كغنم ضللنا . ملنا كل واحد إلى طريقه . والرب وضع عليه إثم جميعنا » (اش ٥٣ : ٦) وأيضاً جاء المسيح ليخلص العالم من آلامه ومتاعبه ، ولذا قال نفس النبي « لكن أحزاننا حملها ، وأوجاعنا تحملها » (اش ٥٣ : ٤) . وهو أيضاً قال « تعالوا إلىّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال ، وأنا أريحكم » (متى ١١ : ٢٨) .

لماذا قال « يا ثقيلي الأحمال ؟ » ربما لأن الذي حمله خفيف يحتمل ويسكت . أما الذي حمله ثقيل ، فليس أمامه إلا أن يقول : يارب ...

المفروض أن نلجأ إلى الرب ، سواء كان الحمل ثقيلاً أو خفيفاً . ولكن على الأقل إذا كان الإنسان مضغوطاً جداً من ثقل أحماله ، فلن يجد أمامه سوى وعد الرب بأن يريحه .

تعالوا ... وأنا أريحكم . إنها دعوة ووعد .

دعوة من الله ، ووعد إلى عالم تعبان ، مثقل بمشاكل من كل نوع : مشاكل الانشقاكات والحروب ، ومشاكل الإسكان والتموين ، ومشاكل الزواج والطلاق ، ومشاكل التطرف والإرهاب ، ومشاكل الفساد والادمان . وفي كل هذه المشاكل ، يقول الرب تعالوا إلىّ يا جميع المتعبين ... وأنا أريحكم .

وهنا نجد صفة جميلة من صفات الرب ، وهو أنه مريح .

مريح التعابى والثقيلى الأحوال ، كثيرون فى متاعبهم يجلسون مع آخرين فيزيدونهم تعباً على تعبهم .

وقد يلجأون إلى البعض ، فلا يجدون منهم سوى الإهمال واللامبالاة . لكن المسيح المريح ، كل من يلجأ إليه يستريح . إنه دائماً يعطى . يعطى الناس راحة وهدوءاً وعزاءً ، وسلاماً وطمأنينة فى الداخل . ويرفع عن الناس أثقابهم ، ويحملها بدلاً عنهم ، ويريحهم . وهكذا يفعل من لهم صورة الله ...

قال الرب : أدعنى فى يوم الضيق ، أنقذك فتمجدنى (مز ٥٠ : ١٥) .

البعض إذا أصابته ضيقة ، يظل يغلى بالألم والحزن داخل نفسه . أفكاره تتعبه ، ونفسيته تتعبه ، وربما اليأس يتعبه . وربما لا يجد أمامه سوى الشكوى أو التذمر أو البكاء . وفى كل ذلك لا يفكر أن يلجأ إلى الله ، ولا أن يضع أمامه قول المزمور :

« إلقِ على الرب همك . وهو يعولك » (مز ٥٥ : ٢٢) .

تعال إذن وكلم الرب عن متاعبك بكل صراحة ، سواء كانت تتعبك معاملة الآخرين أو ضغوطهم . أو ظلمهم أو قسوتهم ... أو كانت تتعبك شكوك أو أفكار ، أو خطايا ، أو عادات مسيطرة عليك ، وتأكد أن الرب يعرف متاعبك أكثر مما تعرفها أنت ويريد أن يخلصك منها جميعاً . فاطلبه فى رجاء وثقة ، واضعاً أمامك قول المزمور :

« يستجيب لك الرب فى يوم شدتك . ينصرك إسم إله يعقوب » (مز ٢٠ :

١) .

وثق أن الكنيسة أيضاً تصلى من أجلك ، حينما تقول فى آخر صلاة الشكر « كل حسد وكل تجربة ، وكل فعل الشيطان ، ومؤامرة الناس الأشرار ، وقيام الأعداء الخفيين والظاهرين انزعها عنا وعن سائر شعبك » ... كذلك تذكر كل متاعبك فى صلوات القداس الإلهى .

* * *

تأكد أيضاً أن الضيقات ليست لوناً من التخلى .

فإنه سمح أن رسله وقديسيه تصيبيهم الشدائد ، ولكنه كان واقفاً إلى جوارهم

يريحهم . وهكذا قال القديس بولس الرسول عن نفسه وعن زملائه في الخدمة « مكشبين في كل شئ ، لكن غير متضايقين . متحيرين لكن غير يائسين ، مضطهدين لكن غير متروكين ... » (٢ كو ٤ : ٨ ، ٩) .

نعم ، ما أكثر متاعب الناس ... والمسيح مستعد أن يريحهم جميعاً .

هناك شخص يتعبه الآخرون . وهناك من تتعبه نفسه . كإنسان مغلوب من شهواته ، أو مغلوب من طباعه ، أو من عاداته . أو تعبان من أفكاره وضغطها عليه . ويريد أن ينتصر على نفسه ولا يستطيع ... هذا يستند على قول الرب « تعالوا إلىّ يا جميع المتعبين ... وأنا أريحكم » .

وهناك إنسان تتعبه الخطية ولا يستطيع فكاً منها ...

كلما يتوب ، يرجع فيخطيء مرة أخرى . ومهما اعترف بخطية ، يعود إليها ويكرر اعترافاته . يضع لنفسه تداريب روحية ، ولكنه لا يثبت فيها . يحاول أن ينصب نفسه على حياة البر ، ومع ذلك فلا يزال يحيا في الخطية . خطيته هي منذ سنوات ، وطبعه الرديء هو هو ، ولا تحسن ! إنه مغلوب وساقط . تكاد الخطية أن تصبح طبيعة له . وقد لجأ إلى الآباء والمرشدين الروحيين ، وإلى القراءات وأقوال الآباء القديسين وسيرهم ، ولا فائدة . هذا الإنسان ليس أمامه سوى قول الرب : « تعالوا إلىّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم » .

فشل الالتجاء إلى غير الله

لماذا تجعل الرب آخر من تلجأ إليه . ابدأ به حتى تصل ولا تفضل . هوذا الرب يعاتبنا قائلاً :

« تركوني أنا ينبوع المياه الحية . وحفروا لأنفسهم آباراً ، آباراً مشقة لا تضبط ماء » (ار ٢ : ١٣) .

نعم ، كثيرون يلجأون إلى الآباء المشقة ، سواء من جهة الآخرين أو أنفسهم .

يقع أحدهم في مشكلة . فيحاول أن يحلها بذكائه الخاص وتفكيره ، بحيله وتدبيره . أو يلجأ إلى الآخرين لكي يسندوه في مشكلته . ولا ينتفع من كل ذلك شيئاً ، لأنه لم يلق همه على الله وحده وهو يعوله . لم يطلب المسيح لكي يريجه . إنه يحاول الاعتماد على الذراع البشرية ! ويتجاهل قول الرب «تعالوا إلَيَّ» ... لذلك يفشل ويبقى في مشاكله بلا حل .

آخاب الملك اشتهى شهوة . اشتهى حقل نابوت اليزرعيلي . ولم يلجأ إلى الله ، بل لجأ إلى إيزابل ، فضيغته . أسند رأسه المتعبة على إيزابل فضاع .

كذلك شمشون أسند رأسه المتعبة على دليلة ، فضاع !

ولم يحدث أن أحداً منهما وجد حلاً ... كذلك اليهود لما لجأوا إلى فرعون ، لكي يخفف عنهم تعبهم ، لم يخففه ، بل أزداد أثقالهم ، قائلاً لهم : «متكاسلون أنتم متكاسلون» (خره ١٧) . ولما لجأ الشعب إلى رحبعام ليخفف عنهم نير سليمان أبيه ، أجابهم «أبى أدبكم بالسياط ، وأنا أؤدبكم بالعقارب» (١مل ١٢ : ١٤) .

إن الذراع البشرية ليس هو الذى ينقذ الإنسان . إنما الذى ينقذه هو الله .

لذلك إرفع بصرك إلى الله وقل له « كل حملى سألقيه عليك ، ولا أعود أفكر فيه ثانية ، أنت الذى تحمله ، لأنك أنت حلال المشاكل وليس غيرك . وكلما أُلجأ إلى غيرك تزداد مشاكلي وتتعدد ...

* * *

عجيب أن البعض يحاول أن يحل مشاكله بخطايا !

هناك من يحاول أن يحل المشكلة بالكذب ، وأحياناً يقول إنه كذب أبيض ! أو قد يلجأ إلى المكر وإلى الدهاء . بل قد يحاول في بعض الأوقات أن يحل مشكلته بالعنف . أو قد يهرب من مشكلته بتعاطى الخمر أو المخدرات لكي ينساها ، أو قد يلجأ إلى المسكنات والمنومات ، أو إلى التدخين . وكل ذلك لا يحل مشكلته ، بل يضيف إليها مشكلة أخرى وأسى من ذلك من يلجأ إلى السحرة والعرافين والدجالين .

* * *

والبعض قد يحاول حل مشكلته بالوهم وأحلام اليقظة .

فيجلس ويتخيل أنه قد صار وصار ... وإذ لا يعجبه الواقع ، يحاول على الأقل أن يتلذذ بالخيال ! ويقول لنفسه : إن لم أتل النجاح . فعلى الأقل أحلم به ! وإن استيقظت من أحلامي ، أنام مرة أخرى لأحلم بها ... ! ولكن أحلام اليقظة لا تحل مشاكله التي تظل باقية . إنما يحلها قول الرب « تعالوا إلى وأنا أريحكم » .

* * *

الله هو حلال المشاكل

هناك اشخاص لم يكن لهم حل سوى الله . مثال ذلك : الثلاثة فتية ، حينما ألقوا في أتون النار . ويونان النبي حينما كان في جوف الحوت . ودانيال النبي حينما ألقوه في جب الأسود . حقاً ، من كان يتقذ كل هؤلاء سوى الله وحده !؟ الذي أرسل ملاكه فسد أفواه الأسود (د : ٢٢) ، وأمر الحوت فقذف يونان إلى البر (يون : ٢ : ١٠) . ولم يسمح للنار أن تؤذي الفتية .

كذلك تدخلت يد الله في المشكلة الأريوسية ...

لقد قامت الكنيسة كلها على أريوس الهرطوقي . حرمة المجمع المسكوني ، ورد عليه القديس أثناسيوس . ولكنه استمر يشكك الناس في الإيمان ، ويلجأ إلى سلطة الأباطور لحمايته فأمر بإرجاعه . وألتمت الرب إلى الكنيسة قائلاً : « تعالوا إلي وأنا أريحكم » . وأقيمت الصلوات ، فانسكبت أحشاء أريوس ، ومات ...

كذلك فعل الله مع جيش سنحاريب ، ومع فرسان فرعون .

حزقيا . الملك مزق ثيابه وتغطى بسم ، ودخل بيت الرب ، ملقياً همه عليه . فخرج ملاك الرب وضرب من جيش أشور ١٨٥ ألفاً (٢مل ١٩ : ١ ، ٣٥) . وأغرق الرب فرعون وفرسانه في البحر الأحمر . ذلك لأن موسى النبي قال للشعب « قفوا وانظروا خلاص الرب ... الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون » (خر ١٤ : ١٣ ، ١٤) .

* * *

حقاً : حينما تفشل جميع الحلول ، يبدو حل الله واضحاً . وألرب يقاقل
عنكم وأنتم تصمبون .

إنه أمين فى قوله « أنا أربحك » . ما أجل الترتيلة اللى تقول « لما أكون تعبان ،
أروح لمن غيرك » ... بنفس الوضع أراح الرب الكنيسة من ديوقلديانوس الذى سفك
دماء آلاف الشهداء ، بل دماء مدن بأسرها ، كشهداء أخيم وشهداء إسنا . وأراحنا
الله من ديوقلديانوس ، وجاء قسطنطين بمرسوم ميلان للتسامح الدينى ... وأراح الله
الكنيسة من اضطهاد شاول الطرسوسى لها . وحوله بنعمته إلى أقوى كارز بالمسيحية .
فصار بولس .

ولا ننسى أيضاً كيف أراح الله داود النبى من شاول الملك الذى كان يطارده من
برية إلى أخرى ...

* * *

إن حلول الله هى أقوى الحلول وانجح الحلول . فعلىنا أن نلجأ إليها ونتمسك
بها .

يعقوب أبو الآباء ، كان خائفاً من أخيه عيسو ، وعاجزاً عن ملاقاته ، ولكنه
عندما تمسك بالرب وقال له « لا أتركك حتى تباركنى » (تك ٣٢ : ٢٦) ، « نجنى من
يد أخى ، من يد عيسو ، لأنى خائف منه أن يأتى ويضربنى ، الأم مع البنين »
(تك ٣٢ : ١١) ... حينئذ ركض عيسو للقاءه وعانقه ووقع على عنقه وقبله باكباً
(تك ٣٣ : ٤) .

وأنت إن استطعت أن تغلب فى صراعك مع الله - كيعقوب - لا بد سيرحك
من كل متاعبك .

لقد تعب سمعان بطرس الليل كله ولم يصطد شيئاً . ولكنه لما تلاقى مع الرب ،
وعلى كلمته ألقى الشبكة ، حينئذ اصطاد سمكاً كثيراً ، حتى كادت الشبكة تتخرق
(لوه : ٤ - ٦) .

والمرأة الخاطئة حينما أمسكت بقدمى المسيح وبللتها بدموعها ، أمكنها أن
تتخلص من خطاياها ، وتنال المغفرة . وما كان ممكناً لها ذلك ، لولا ذهابها إليه .

المهم أن تأتى إلى الله . ولكن كيف تأتى ؟ .

كيف تأتي إلى الله ؟

١ - تأتي بقلب منسحق ، مثلما أتى الابن الضال :

إنه كان في الكورة البعيدة يعيش في تعب . ثم فكر أن يأتي إلى أبيه ليستريح . فأتى إليه بقلب منسحق يقول : « أخطأت إلى السموات وقدامك ، ولست مستحقاً أن أدعى لك ابناً » (لوقا : ١٥ : ٢١) . وبهذا الانسحاق قبله أبوه ، وأقام له وليمة فرح ، وألبسه الحلة الأولى ، وجعل خاتماً في يده... بينما أخوه الأكبر خسر الموقف ، لأنه رفض أن يأتي ، وتكلم مع أبيه بكبرياء قلب .

لا تأتي إلى الله متكبراً ، تقول له : لماذا تتركني وتضطهدني .

ولا تنسب إلى الله كل أسباب مشاكلك ، غير معتقد أنك أنت السبب ، بل تنسب السبب إلى تخلي الله عنك !! إنما تعال إليه منسحقاً ، لكي تصطلح معه . وكما قال أحد الآباء :

اصطلح مع الله ، تصطلح معك السماء والأرض .

إذن لا تأتي إليه فقط لكي يريحك من أتعابك ويحل لك مشاكلك ، إنما تعال أولاً لكي تصطلح معه . فربما يكون السبب الأصلي في مشاكلك ، أنك في خصومة مع الله ، وأن طرقت لا ترضيه... ويقول لك الله : أنا مستعد أن أريحك ، إنما المهم أن تترك الطريق الخاطيء الذي تسير فيه . وكما يقول :

ارجعوا إليّ ، ارجع إليكم ، قال رب الجنود (ملا ٣ : ٧) .

٢ - إذن تعال إليه تائباً ، لكي تصطلح معه .

وحينما تصطلح مع الله . تجد الدنيا كلها قد اصطلحت معك ، ويعطيك الرب سلاماً وراحة في قلبك . يعطيك هدوءاً داخلياً ، وثقة وطمأنينة . وغالباً ما يكون سبب تعب الإنسان ، هوشىء في داخله يتعبه . وهنا يعجبني قول القديس يوحنا ذهبي الفم :

لا يستطيع أحد أن يضر إنساناً ، ما لم يضر هذا الإنسان نفسه .

فمن الجائز أن يكون سبب متاعبك ، هو أنك تضر نفسك ، فإذا ما اصطلحت مع الله وأتيت إليه تائباً ، ستتخلص من ضررك لنفسك ، وتكون راحتك سهلة وممكنة .

* * *

٣ - كذلك ينبغي أن تأتي إلى الله ، بالإيمان ، وبالصلاة .

كثيرون يأتون إلى الله ، ولكن ليس عندهم إيمان أن الله سيحل مشاكلهم !
ويصلون وهم لا يحسون أن الصلاة ستكون لها نتيجة . وهكذا يستمرون في تعيهم بسبب عدم إيمانهم ، وبسبب فقدانهم للرجاء والثقة بالله .

لقد قال السيد المسيح للمرأة الخاطئة التائبة « إيمانك خلصك ، فذهبي بسلام »
(لو ٧ : ٥٠) . وقال للأبرص الذي شفى « قم وامض ... إيمانك خلصك » (لو ١٧ : ١٩) .
وقال للأعمى المستعطي في أريحا « أبصر . إيمانك قد شفاك » (لو ١٨ : ٤٢) ،
وقال للأعميين « بحسب إيمانكما ، ليكن لكما » (متى ٩ : ٢٩) . لذلك تعال إليه بإيمان ، واثقاً أنه سيريحك ، وحينئذ ستستريح ...

* * *

٤ - تعال إليه أيضاً ، وأنت تحمل نيره عليك .

فهو الذى قال « احملوا نيري عليكم ، وتعلموا منى فإنى وديع ومتواضع القلب ، فتجدوا راحة لنفوسكم » (متى ١١ : ٢٩) . إذن احمل صليبك واتبعه . وحينما تأتي إليه فى مشاكلك ، لا تأت متدمراً متضجراً ، بل تعال فى حياة التسليم ، خاضعاً لمشيئته ، متذكراً قول الرسول :

« واحسبوه كل فرح يا أخوتى ، حينما تقعون فى تجارب متنوعة » (يع ١ :

٢) .

بهذا لا يضغط عليك التعب ، لأن قلبك سليم من الداخل . لم تستطع المتاعب التى فى الخارج أن تتعب القلب من الداخل ، لأنه محصن بالإيمان وبخياة التسليم ، ولأنه يحمل نير الرب بفرح . والقلب فى الداخل مملوء بالسلام والطمأنينة وبالفرح ، حتى فى وسط الضيقات ...

فإن لم يكن لك هذا الشعور ، اطلبه من الله .

وهو الذى يهبك السلام ، لأنه هو الذى قال « سلامى أترك لكم ، سلامى أنا أعطىكم » (يوحنا : ١٤ : ٢٧) . إن من ثمار الروح « محبة وفرح وسلام » (غل : ٥ : ٢٢) .
فإن كانت لك ثمار الروح هذه ، ستحيا دائماً مستريحاً .

٥ - ادخل إذن فى شركة الروح القدس ، ولتكن لك ثمار الروح ، وتعال إلى الله هكذا ، تجد راحة لنفسك .





سَعَى اللّٰهُ
لِخَلَاصِنَا

”يريد جميع الناس يخلصون
وإلى معرفة الحق يقبلون“
(1 تي ٤: ٢)

قد يفقد الإنسان رجاءه في الخلاص ، لأن أعداءه قد اعتزوا أكثر منه ، ولا قدرة له على مقاومتهم ، سواء في ذلك أكانوا أعداءه الروحيين ، أو مضايقيه في هذا العالم . وهو خلال ذلك يصرخ « إن الغرباء قد قاموا عليّ ، والأقوياء طلبوا نفسي ، ولم يسبقوا أن يجعلوا الله أمامهم » (مز ٥٣) « ضاع المهرب مني ، وليس من يسأل عن نفسي » (مز ١٤١) .

أو قد يفقد خاطيء رجاءه في التوبة ، لأنه لا يقدر على الوصول إليها ، أو بالأكثر لا يريدتها .. !

ولكننا نقول لكل واحد من هؤلاء وأمثالهم :

لا تفقد رجاءك . فإن الله يهتم بخلاصك أكثر مما تهتم أنت .. بل هو الذي يسعى لخلاصك . وهذا هو أسلوب الله منذ البدء ..

* * *

بدأت قصة هذا الخلاص منذ أيام أبويننا الأولين آدم وحواء . لقد سقط الاثنان في الخطية ، واستحقا حكم الموت . وكان الخلاص لازماً لهما جداً . ومع ذلك نرى أن الله نفسه هو الذي سعى لكي يخلصهما ...

لا آدم طلب الخلاص ، ولا حواء ، بل هربا كلاهما من وجه الله ، واختفيا خلف الأشجار .. !

ما كان الهروب وسيلة عملية تؤدي إلى الخلاص . ولكن الخلاص لم يكن يشغلها في ذلك الحين . وكل ما كان يشغلها هو الخوف والنجس . ما سمعنا قط أن آدم قال ، لله : يارب اغفر ، يارب سامح . أخطأت إليك ، فامح ذنبي ... ولا حواء قالت شيئاً من هذا ... ولعل هذه الألفاظ لم تكن في قاموسهما الروحي في ذلك الحين ...

وفيما هما لا يبحثان عن خلاص نفسيهما ، كان الله يبحث عنهما ..

كان ينادى في الجنة « يا آدم ، أين أنت ؟ » (تك ٣ : ٩) . كان الله هو الذى يفتش عن آدم وحواء ، وهو الذى يفتح الموضوع ، ويستدرجهما إلى الكلام ، ويشرح لهما ما وقعا فيه من خطأ ، وما يستحقانه من عقوبة . ثم يقدم لهما أول وعد بالخلاص ، وهو أن نسل المرأة سوف يسحق رأس الحية (تك ٣ : ١٥) .

صدقونى ، لو أن الله ترك الإنسان إلى حريته وحده ، أو إلى قدرته وحده ...
ما خلص أحد على الاطلاق !

ولكن الله هو الذى يسعى وراء خلاص الكل ... كما أعطانا مثلاً عن سعيه وراء الخروف الضال ، ووراء الدرهم المفقود (لو ١٥) .

كان الخروف سائراً في ضلاله ، لا يدري أين هو ، وربما لا يدري ما هو فيه . وفيما هو كذلك كان الراعى الصالح مهتماً بخلاصه . الراعى هو الذى اكتشف ضياع هذا الخروف ، وهو الذى بحث عنه وفتش ، وجرى وراءه في الجبال والوديان إلى أن وجدته . ولعلها كانت مفاجأة له ، حينما وجد راعيه أمامه ، يأخذه في حنان ، ويحمله على منكبيه فرحاً . حقاً ما أجمل قول الوحي الإلهي عن الرب كراعٍ :

« أنا أرعى غنمى وأربضها - يقول السيد الرب - وأطلب الضال ، واسترد المطرود ، وأجبر الكسير ، وأعصب الجريح ... » (حز ٣٤ : ١٥ ، ١٦) .

هو الذى يطلب ويسترد ، وهو الذى يجبر ويعصب . العمل هو عمله ، وليس عملنا نحن ... أليس هذا أمراً يبعث الرجاء في النفس ؟

وفي مثال الدرهم المفقود ، نرى نفس الوضع ، وبأسلوب أعمق :

الدرهم لا يملك حياة ، ولا عقلاً ولا فكراً ولا إرادة .. ولا يدري إلى أين هو قد تدرج ، وأين استقر به الأمر . وأيضاً لا يعرف كيف يرجع إلى كيس صاحبه أو جيبه ...

وقد كان الدرهم المفقود رمزاً إلى كثيرين من نوعه ...

كان رمزاً لكثيرين ممن لا حياة لهم ولا إرادة ... وكان رمزاً أيضاً للضآكة ... فلو أن الأرملة كانت فقدت مائة جنيهاً ذهباً ، لكان من المعقول أن تبحث عنها وتفتش ... أما مجرد درهم واحد ينال منها كل ذلك الاهتمام ، فهو أمر يدعو إلى التأمل ، ويضع أمامنا عمقاً في الرجاء وهو:

إن الله يبحث عن خلاصك ، مهما بدا قدرك ضئيلاً !

لقد ضرب الله لنا مثل الدرهم لنعرف قيمة النفس عنده .

لأنه قد يسأل بعضهم ما قيمة هذا الدرهم الضئيل ، حتى يصير هذا البحث الجاد عنه ، وهذا الفرح وهذه الوليمة عند العثور عليه؟! . إن كل هذا رمز لاهتمام الرب بالنفس الواحدة ، مهما كانت تبدو ضئيلة الشأن . ويعبر المثل عن سعي الله لخلاصنا حتى لو لم نسع نحن ، وفرحه بخلاصنا وفرح الملائكة أيضاً .

ألسنت أنت عند الله أفضل من درهم واحد مفقود!؟

* * *

ثق أن نفسك ثمينة في نظرة الله إليها ، مهما كانت تبدو ضئيلة في نظر الناس ، أو في نظرك أنت ... مثل المرأة السامرية التي سعى الرب لخلاصها ، وهي محتقرة في نظر الناس ... ومثل زكا العشار الذي ذهب الرب الى بيته ، وهو في نظر الكل رجل خاطيء لا يستحق (لو ١٩ : ٧) .

* * *

حقاً ، إن الرب يسعى لخلاصنا ، ويفرح بذلك جداً ..

كما أخذ الخروف الضال ، و « حمله على منكبيه فرحاً » (لو ١٥ : ٥) ، وكما قال إنه « يكون فرح في السماء بخاطيء واحد يتوب » (لو ١٥ : ٧) ، وكما فرح برجوع الابن الضال ، وذبح له العجل المسمن ، وكما فرح بالعثور على الدرهم المفقود (لو ١٥ : ٢٣ ، ٩) . إنه يسعى لخلاصنا أكثر مما نسعى نحن ، ويفرح بخلاصنا أكثر مما نفرح نحن . ويفتش عنا بكل اهتمام ، أكثر مما نفتش نحن عن ابديتنا . وما أجمل ما قاله الرسول عنه إنه :

« يريد أن الجميع يخلصون ، وإلى معرفة الحق يقبلون » (٢ : ٤) .

وقيل عنه أيضاً إنه لا يشاء موت الخاطيء ، بل أن يرجع ويحيا (حز ١٨ : ٢٣) .
ونقول عنه في آخر كل صلاة من صلوات الأجيبة : « الداعي الكل إلى الخلاص من
أجل الموعد بالخيرات المنتظرة » ...

* * *

إن عمل الله ليس فقط أن يفرح بتسبيح السارافيم ، أو بنقاوة الملائكة ، أو
بكراسة الرعاة ، أو بجهاد القديسين ، إنما هو يفرح بخاطيء واحد يتوب أكثر من
تسعة وتسعين باراً لا يحتاجون إلى توبة (لو ١٥ : ٧) .

يطلب ما قد هلك !!

لا تفقد الرجاء إذن مهما ضللت ، لأن هناك درجة أشبع كثيراً من الضلال قد
جاء الرب لخلاصها ، كما قال عن نفسه إنه :

« جاء يطلب ويخلص ما قد هلك » (لو ١٩ : ١٠) .

يخلص مَنْ ؟ ليس مجرد الضعيف أو الخاطيء أو المتوانى أو المريض ... وإنما « ما
قد هلك » ... ! ليس فقط مَنْ هو في طريق الهلاك ، إنما ما قد هلك !! ... أى رجاء
أعظم من هذا أن الرب « جاء يطلب ويخلص ما قد هلك » ... ولم يقل « يخلص
الطالبين ... » إنما هو الذى يطلب ... الذى يسعى لخلاص كل أحد ...

إذن حتى الذى هلك ، مازال له رجاء فى الخلاص !

نعم بلا شك . إن المسيح قد جاء ليخلص هذا الهالك وأمثاله . جاء يخلص الموتى
بالخطايا (أف ٢ : ٥) .

لا يقل أحد إذن ، مهما حدث منه ، ومهما حدث له : أنا انتهيت ، أنا ضعت .
وليست هناك فائدة منى ، ولا وسيلة للخلاصى ... ! اطمأن فحتى إن كنت قد هلكت
فعلاً ، فاعلم ان باب الخلاص لا يزال مفتوحاً أمامك ، والرب قد جاء يطلب ويخلص
ما قد هلك ...

وهب الله رجاء للمجدلية التي كان عليها سبعة شياطين .

وعندما قام من الأموات ، يقول مرقس الإنجيلي إنه « ظهر أولاً لمريم المجدلية التي كان قد أخرج منها سبعة شياطين » (مر ١٦ : ٩) . ولما أراد أن يبشر رسله القديسين بقيامته ، اختار هذه بالذات لكي تبشرهم !! ونحن لا ندرى هل كان عليها سبعة شياطين فقط أم رقم سبعة هنا له معنى رمزي يدل على عدد كبير من الشياطين !! ولكن ماضى المجدلية قد نُسِي ، وقد أصبحت مبشرة للرسول ! يا للعجب ! أليس هناك رجاء لك من خلال قصة هذه المرأة العجيبة !؟

* * *

حقاً انظروا لا تحتقروا أحد هؤلاء الصغار (متى ١٨ : ١٠) .

سواء الصغار في سنهم ، أو في روحياتهم ، أو في نوعيتهم ، أو أصحاب الماضى الطويل الاثيم . لا تحتقروا أحداً . ولا تصغر نفس أحد إن كان واحداً من هؤلاء ، ولا يفقد رجاءه .

صدقوني ، إن الله في اليوم الأخير سيرتبنا ترتيباً آخر غير الذى نحن عليه الآن ...

ترتيبنا في العالم الحاضر هو حسب السن أو المركز أو الدرجة ، أو المواهب والقدرات ... أما في الأبدية فسيكون حسب القلب الذى يعرفه الله . وربما كثير من الصغار هنا ، ومن المزدرى وغير الموجود ، يسبقون أصحاب الدرجات والمواهب ، وأصحاب المناصب والرئاسات . فلا تحتقروا إذن أحد هؤلاء الصغار .

* * *

ولما أراد الله خلاص اربحا ، اختار راحاب الزانية (يش ٢) .

ودخلت راحاب في شعب الله ، كما دخلت في سلسلة الأنساب (متى ١) وصارت قديسة ، ونسى لها ماضيها . وصارت صورة حية للرجاء لكل من يتذكرها .

ولعلك تسأل : ما معنى اهتمام الله بامرأة زانية ، وبأخرى كان عليها سبعة شياطين !؟ أقول لك إنه نفس اهتمامه بالأشياء الصغيرة ، بالمزدرى وغير الموجود (١ كو ١ : ٢٨) .

إن قصة (المدوسة بدمها) في سفر حزقيال ، تعطى رجاء لكل ...

قال عنها الكتاب إنها كانت عريانة وعارية ، ومطروحة على الحقل بكرهة نفسها ، وانها كانت مدوسة بدمها ... فهل تركها الله هكذا ؟ كلا ، إنه يقول لها وهي في هذه الحالة السيئة :

« مررت بكِ ورأيتكِ ، وإذا زمنكِ زمن الحب » .

أى حب يارب لهذه المكروهة ، العارية من كل فضيلة ، المطروحة على الحقل؟! نعم ، إن الله أحبنا ونحن خطاة ، ولهذا بذل نفسه عنا ، ومات لأجلنا ، البار من أجل الأثمة . وماذا عن هذه الاثيمة الخاطئة ؟ يقول لها « مررت بكِ » ، وليست هي التي ذهبت إليه . وماذا أيضاً ؟ يقول :

« فبسطت ذيلي عليكِ ، وسترت عورتكِ » . غطى الخطية ولم يحتقر صاحبيتها ...

« ودخلت معكِ في عهد ، يقول السيد الرب ، صرت لي » ...

وفي هذا العهد ، منحها الرب الكثير من نعمه الروحية . يقول :

« فحمتكِ بالماء » يعنى المعمودية ، حيث غسلها من كل خطاياها .

« ومسحتكِ بالزيت » يعنى الميرون ، فنالت المسحة المقدسة ، مسحة الروح

القدس . « وألبستكِ مطرزة ، وكسوتكِ برأ » أى البر الجديد الذى نالته .

وماذا أيضاً ؟ يقول : « وجملتكِ جداً جداً ، فصلحتكِ لمملكة » أى للملكوت .

« وخرج لكِ إسم فى الأمم لجمالكِ ، لأنه كان كاملاً بيهاى الذى طرحته

عليكِ ، يقول السيد الرب » (حز ١٦ : ١٤) .

عجيب حقاً هو الله الخنون هذا ، الذى يطرح بهاءه على هذه المدوسة بدمها ،

المكروهة ، فتصير كاملة الجمال ، وتصلح لمملكة ، وتدخل فى عهد مع الله ، وتنال من

كل نعمه ، بل يقول لها : « وتاج جمال على رأسك » (حز ١٦ : ١٢) .

أليس كل هذا يعطينا درساً عجيباً فى الرجاء ... ؟

ليس المهم ما نحن فيه ، إنما ما بصيرنا الرب إليه ...

وفي قصة هذه الخاطئة ، التي ترمز لأورشليم كلها ، كان الرب يعمل كل شيء . ولو تركها لنفسها لضاعت ، واستمرت في عبادة الأصنام . ولكن مناخس الرب كانت تحرك الضمير باستمرار وتقوده إلى التوبة . ولعل هذا الأمر يذكرنا أيضاً بقصة شاوّل الطرسوسى .

مثال شاوّل الطرسوسى

هل شاوّل الطرسوسى بحث عن المسيح ، أم بحث المسيح عنه ؟

كان شاوّل « مجدفاً ومضطهداً للكنيسة ومفترياً » كما قال عن نفسه (١ تى ١ : ١٣) وكان « يسطو على الكنيسة ، وهو يدخل البيوت ويجر رجالاً ونساء ويسلمهم إلى السجن » (أع ٨ : ٣) . ولكن الله كان يفكر فى خلاص شاوّل ، وفى استخدام مواهبه للخير ، فظهر له فى طريق دمشق ، ودعاه .

إن شاوّل لم يطلب الإيمان . وفى يوم لقائه بالرب ، لم يكن شاوّل يرتب لهذا اللقاء ولم يفكر فيه ، ولا طراً على ذهنه ..

ولكن الله هو الذى سعى إلى شاوّل ، وطلبه وخلصه ودعاه .

إن فى تحول شاوّل الطرسوسى مضطهد الكنيسة إلى أعظم رسول فى المسيحية ، وتعبه لأجل الكلمة ، هو درس عظيم فى الرجاء أمام كل من هم بعيدين عن الرب .

لعل مثله اريانوس والى أنصنا ، أكثر ولاية مصر عنفاً فى قتل الشهداء وتعذيبهم ، وكيف أمكن أن يتحول هو نفسه إلى شهيد ... بعمل الرب فيه ولأجله ..

فى سعى الله لخلاصنا ، نذكر أيضاً قصة عذراء النشيد .

مثال عذراء النشيد

كانت نائمة ومسترخية ، وقد تعطرت وتطيبت ، خلعت ثيابها ، وغسلت رجليها ، ونامت . وصوت حبيبتها يسعى إليها من بعيد ، « ظافراً على الجبال ، قافراً على التلال ، يقول لها : « قومي يا حبيبتى وجميلتى وتعالى » (نش ٢ : ١٠) . بل هو يقف على بابها يقرع : « افتحي لى يا أختى ، يا حبيبتى يا حامتى يا كاملتى ، لأن رأسى قد امتلأ من الطل ، وقصصى من ندى الليل » (نش ٥ : ٢) ... أى سعى من الرب أكثر من هذا ، وأى انتظار فى الحاح على طلب النفس ، أكثر من رأسه تمتلىء من ندى الليل . إنه درس فى الرجاء لكل نفس نائمة ، لا تطلب الله ، بل تهتم بذاتها وراحتها ...!

الله هو الواقف على الباب ، وهو الذى يقرع ... !

وهو الذى يقول فى كل حين « هأنذا واقف على الباب وأقرع . إن سمع أحد صوتى وفتح الباب ، أدخل إليه وأتعشى معه وهو معى » (رؤ ٣ : ١٠) . إن الله الطيب الذى لم يتركنا حتى فى تكاسلنا واهمالنا وبعدنا عنه فى حياة التراخى واللامبالاة ، وإنما بلغ من فرط محبته انه :

سعى حتى إلى العشارين والخطاة ، وجلس على موائدهم ، ليجذبهم إليه !

إنه يسعى إلى كل هؤلاء ، وينزل إليهم لكي يرفعهم إليه ، ويقول إن هؤلاء أيضاً أبناء لإبراهيم (لو ١٩ : ٩) . بل إن من أجل الآيات فى هذا المجال ، هى قوله عن نفسه إنه : « جاء يطلب ويخلص ما قد هلك » (لو ١٩ : ١٠) ...

* * *

وسعى الله لخلاصنا ، ترمز إليه قصة الخليفة :

تحكى لنا الآيات الأولى من سفر التكوين أن « الأرض كانت خربة وخالية » وكانت مغمورة بالمياه « وعلى وجه الغمر ظلمة » (تك ١ : ٢) . صورة كئيبة بلا شك . ولكن الله لم يترك الأرض الخربة هكذا ، وإنما « كان روح الله يرف على وجه

المياه». ثم قال الله ليكن نور، فكان نور.. وبدأ الله ينظم هذه الأرض، ويمنحها حياة وجمالاً، ويخلق فيها الأشجار والأزهار والأطيبار، ووضع قوانين الفلك بما فيه من شمس وقمر، ونجوم وكواكب.. ثم خلق الإنسان. وصارت الأرض جميلة وعامرة بالحياة..

وفي كل هذا يعطى الرب رجاء لكل أرض خربة تغمرها المياه..

لا تيأس مهما وصلت المياه إلى نفسك، فروح الله يرف على وجه المياه. ولا تيأس مهما غمرتك الظلمة، فلا بد سيأتي الوقت الذى يقول فيه الله: ليكن نور...

لذلك ليكن لك رجاء مادام الله يسعى بنفسه لخلاصك.

إن البشرية عاجزة عن تخلص نفسها. وما لا تستطيع أن تفعله من أجل خلاصها، يعملها الرب من أجلها..

أليست هذه هي قصة التجسد والفداء فى صميم مفهومها اللاهوتى : الله بنفسه يسعى لخلاص البشر، ويقدم لهم الكفارة والفداء. أو ليس هو أيضاً الذى أرسل الأنبياء والرسل لهذا الغرض، لكى ينادوا داعين الجميع : « اصطلحوا مع الله » (٢ كو ٥ : ٢٠). ومن أجل هذا أيضاً أرسل لنا الوحي الإلهى فى الكتب المقدسة القادرة أن تحكمنا للخلاص (٢تى ٣ : ١٥).

زيارات النعمة للجميع

إن (زيارات النعمة) تمر على بيوت الجميع ، ولم تغفل أحداً ، بل كل خاطيء كان له نصيب منها ... !

قيل عنه إنه كان يجول يصنع خيراً (أع ١٠ : ٣٨) يفتش عن النفوس الضائعة ، مهما عاندت ، ومهما قاومت ، ومهما هربت منه ... ! يظل وراءها حتى يرجعها إليه ، مهما كانت حالتها تدعو إلى اليأس . وهنا نقول قاعدة هامة وهى :

إن الله لا ييأس مطلقاً من خلاص الناس ، مهما يشسوا هم ...

الله دائماً يعمل ، ويعمل مع الكل . ليس فقط مع المريض روحياً ، وإنما حتى مع الميت الذى قد أنتن (يو ١١ : ٣٩) ، حتى مع اللص فى آخر ساعات حياته على الأرض (لو ٢٣ : ٤٣) ، حتى مع رئيس العشارين ، زكا...! ومع السامرية التى عاشت مع خمسة (أزواج) !! (يو ٤ : ١٨) .

وهو يبحث عن هذه المرأة الضائعة ، ويجذبها إلى التوبة ...

هو الذى ذهب إلى البئر حيث تستقى . وهو الذى دبر المقابلة بحكمته ، ورتب موعد اللقاء . وهو الذى جرّ الحديث معها ، وكلمها عن الماء الحى ، وهو الذى فتح الموضوع وشجعها على الاعتراف وهو الذى نطق باعترافاتها الصعبة حتى لا تخرج ، وقبل منها مجرد الموافقة ولم يبال فى كل ذلك بأن اليهود لا يعاملون السامريين ، ولا بأن تلاميذه « كانوا يتعجبون من أنه يتكلم مع امرأة » (يو ٤ : ٩ ، ٢٧) .

حقاً كما قال القديس يوحنا ذهبى الفم عن محبة الله :

إن الله يجول ملتصقاً سبباً لخلاصنا ، ولو دمعة تسكبها ... يأخذها الله - قبل أن يخطفها شيطان المجد الباطل - ويجعلها سبباً لخلاصك ... حقاً انه لا يوجد أحسن من قلب الله علينا ... أحسن منا على أنفسنا ! إنه هو الذى قال : « بسطت يدي طول النهار إلى شعب معاند ومقاوم » (رو ١٠ : ٢١ ؛ إش ٦٥ : ٢) حتى إلى هذا الشعب المتمرد السائر وراء أفكاره ، بسط الله يده ، طالباً خلاصه ... ! ولعل هذا يذكرنا بمثل الزارع .

لقد قبل الرب دموع المرأة الخاطئة ، وقال لها مغفورة لك خطاياك . وقال للمتكئين إن خطاياها الكثيرة قد غفرت لها لأنها أحببت كثيراً . وشرح كيف أنها كانت أفضل من الفريسي ...

هذه الدموع أمام الله محت كل الماضى الاثيم الذى للمرأة .

لم يذكرها كل خطاياها القديمة ، أمام هذا الإنسحاق الحاضر . حقاً ما أجمل قول الرب عن خطايانا « لا أعود أذكرها » .

مثال الزارع

الله شبه نفسه بزراع يلقي بذاره فى كل أرض ...

لقد ألقى بذاره على الأرض الجيدة فى كل مستوياتها ، التى تنتج ثلاثين كالتى تنتج ستين كالتى تنتج مائة . الكل سعى الرب لتزويده بعمل نعمته ، بتوصيل كلمة الخلاص إليه ... ولكن ماذا عن الأرض المتحجرة ، والأرض المحاطة بالأشواك ؟ كل منها أيضاً زارته النعمة . ولكن « مَنْ لَهُ أذنان للسمع فليسمع » (متى ١٣ : ٩) ...

الله يسعى لخلاص الكل . لا يمنع كلمته المحيية عن أحد ...

حتى الطريق ، وصلته بذار من الرب ، وكذلك الأرض التى لم يكن لها عمق . فإن كان الله قد عمل فى كل هؤلاء ... فليكن لك رجاء ان الله سيعمل فىك أنت أيضاً ، لكى تثمر . وإن لم تثمر ، هو « ينقب حولك ويضع زبلاً » (لو ١٣ : ٨) ..

هنا ونقول : ما أجل تلك العبارات المعزية التى نصليها فى القديس الغريغورى « لم تدعنى معوزاً شيئاً من أعمال كرامتك . ربطتنى بكل الأدوية المؤدية إلى الحياة » ...

لولا طيبة الله ، ما كان يلقي بذاره حتى وسط الأشواك ...

لو أن واحداً منا فى نفس الموقف ، لقال لتلك الأرض : « انزعى الشوك منك ، لكى ألقى بذارى فىك » ... ولكن الله لم يفعل هكذا ... حقاً إن بعض الأراضى استطاع الشوك أن يخنق زرعها . ولكن الله قادر أن ينقى الشوك من كل أرض . هو نفسه ينظفها « ينقب حولها » ، لأن كثيراً من الأنفس لا تستطيع أن تنزع الشوك من حولها ، وإنما هى تصرخ مع كلمة الوحي قائلة للرب :

« توبنى فأتوب . لأنك أنت الرب إلهى » (أرميا ٣١ : ١٨) .

وتقول أيضاً مع المرتل : « اغسلنى فأبيض أكثر من الثلج ، انضح علىّ بزوفاك فأطهر » (مز ٥٠) . أنت يارب الذى تغسلنى ، وأنت الذى تطهرنى . وأنا أقول مع

ذلك الأبرص «يا سيد، إن أردت، تقدر أن تطهرني» (متى ٨ : ٢) . فيجيب الرب - كما قال لذلك - أريد فاطهر...

اللّٰه يَصَالِحُنَا مَعَهُ

الله يريد أن يصلحنا ويصلحنا ، بكل الوسائل الممكنة ...

من أجل ذلك أرسل الله الرسل والأنبياء والوحي الإلهي ... ولماذا أرسل كل هؤلاء ؟ يجيب القديس بولس الرسول قائلاً : « الله الذي صالحنا لنفسه بيسوع المسيح ، وأعطانا خدمة المصالحة ... إذن نسعى كسفراء عن المسيح ، كأن الله يعظ بنا . نطلب عن المسيح : تصالحو مع الله » (٢ كو ٥ : ١٨ ، ٢٠) .

الله الحنون صالحنا لنفسه ، ولم يحسب لنا خطايانا ...

وفي ذلك يقول بولس الرسول أيضاً : « إن الله كان في المسيح مصالِحاً العالم لنفسه ، غير حاسب لهم خطاياهم » (٢ كو ٥ : ١٩) . وكما نقول عنه في خاتمة كل صلاة : « الداعي الكل إلى الخلاص من أجل الموعد بالخيرات المنتظرة » ...

والله في صلحه معنا وفي غفرانه ، يقدر ضعف طبيعتنا ... يقول المرتل في الزمور : « كبعد المشرق عن المغرب ، أبعد عنا معاصينا . كما يترأف الأب على البنين ، يترأف الرب على خائفيه » ولماذا ؟ « لأنه يعرف جبلتنا ، يذكر أننا تراب نحن » (مز ١٠٣ : ١٢ - ١٤) ... الله ينزل إلى هذا التراب ، و يقيم صلحاً معنا ، واضعاً في اعتباره ضعف طبيعتنا .

صدقوني ، انه يفعل هذا حتى مع الهاربين منه ... !

ذكرنا قبلاً ، كيف سعى الله إلى آدم وهو هارب منه ومختبئ خلف الأشجار (تك ٣ : ٨) . ونضيف مثلاً آخر في قصة يونان النبي .

قصة يونان النبي

كان يونان النبي هارباً من الله . وسعى الله لخلاصه ...

لم يرفضه الله ، لأنه هرب منه إلى ترشيش ، مخالفاً أمره في الذهاب إلى نينوى . ولم يرفضه في ثانی مرة ، حينما تابت نينوى ورحمها الله ، فاغتاظ يونان ! وإنما عمل الله على مصالحة يونان واقناعه بالصواب الذى اغتاظ منه يونان حتى الموت !! (يون ٤ : ٣ ، ٤) . انظر حنو الله على يونان في حزنه الذى لم يكن يتفق مع مشيئة الله . يقول الكتاب : « فأعد الرب الإله يقطينة ، فارتفعت فوق يونان ، لتكون ظلاً على رأسه لكي يخلصه من غمه » (يون ٤ : ٦) .

إن سفر يونان يعطينا مثلاً جميلاً عن سعى الله لخلاص البشر :

ما كان أهل نينوى يفكرون في خلاص أنفسهم .
وما كان بحارة السفينة التى ركبها يونان يسعون إلى خلاصهم .
ولا يونان شعر أنه أخطأ وطلب الخلاص لنفسه !
ولكن الله بنفسه سعى لخلاص كل هؤلاء ، وخلصهم ...

الله هو الذى بدأ . والمبادرة أتت منه . ثم اتت استجابتهم هم لعمله الإلهي ، مباشرة من بحارة السفينة وأهل نينوى ، وبعد اقناع وبعد وقت من جانب يونان النبي ...

اجتذب الله أهل السفينة إليه بخطة بارعة ...

بالأمواج التى لطمت السفينة حتى كادت تنكسر ، وبالخوف الذى أصاب البحارة حتى صرخ كل واحد إلى إلهه ، وليس إلى الله الواحد ، ثم بعمل الله فى القرعة التى ألقوها ، وأيضاً باعتراف يونان . ثم بهدوء البحر بعد القاء يونان . ونجحت الخطة الإلهية مع البحارة « فخاف الرجال من الرب خوفاً عظيماً ، وذبحوا

ذبيحة للرب ، ونذروا نذوراً» (يون ١ : ١٦) .

وكان البحارة قد استخدموا أولاً طرقهم البشرية ، فلم تنجح « إذ طرحوا الامتعة التي في السفينة ليخففوا عنهم» ولكن «البحر كان يزداد هيجاناً» كذلك فإنهم «جدفوا ليرجعوا السفينة إلى البر فلم يستطيعوا» ولو استطاعوا ما خلصوا إيمانياً . ولكن الله تدخل بطريقته التي أمكنها أن تخلصهم من البحر وتخلصهم من جهة الإيمان . ونجحت خطة الله في خلاصهم ...

واجتذب الرب أهل نينوى ، بالانذار الإلهي ، ومناداة يونان .

وما كان أهل نينوى قادرين على خلاص أنفسهم إذ كانوا اميين بعيدين عن الإيمان ، كما انهم كانوا جهلة «لا يعرفون بينهم من شمالهم» (يون ٤ : ١١) . ولكن انذار الله لهم بأن المدينة ستقلب وتهلك ، اتى بشماره ، فخافوا وتابوا وصاموا ، «ورجعوا عن طريقهم الرديئة ، وقبل الله توبتهم» ...

وبقى يونان . وخلصه الله أيضاً ، على دفعتين ...

في المرة الأولى سعى الله لتخليص يونان من عواقب مخالفته وهروبه . واستخدم لذلك الخطر الذي تهدده في البحر . والذي قابله يونان أولاً بلامبالاة . وكان نائماً حتى في الوقت الذي صلى فيه كل البحارة الاميون ، لدرجة أن رئيس النوتية وبخه قائلاً : «ما لك نائماً ، قم اصرخ إلى إلهك ، عسى أن يفتكر الإله فينا فلا نهلك» (يون ١ : ٦) . ثم أكمل الله خطته الإلهية بأنه «أعد حوتاً عظيماً فابتلع يونان» .

وتخلص يونان من عصيانه ، وبقي أن يتخلص من محبته لكرامته .

وفعل الله ذلك بالشمس التي ضربت رأس يونان فذبل ، واليقطينة التي ظللت عليه ، والدودة التي أكلت اليقطينة ، ثم تفاهم الله معه .

وهكذا استطاع الله أن يخلص يونان ، كما خُص نينوى وأهل السفينة .

وكان عند هؤلاء جميعاً استجابة لعمل الله فيهم وعمله من أجلهم . ولعل هذا يقودنا إلى نقطة وهى :

الشركة مع الله

الله يعمل لأجلك ، يسعى لخلاصك ، فعليك أن تستجيب .

تشارك فى العمل معه . لا تقاوم عمل الروح كما فعل اليهود وآباؤهم (أع ٧ : ٥١) . ولا تفعل أيضاً مثلما فعلت عذراء النشيد، التى رفضت أن تفتح لحيبها . فكانت النتيجة أنه - بعد طول انتظار- «تحول وعبر» . فقالت العروس «نفسى خرجت عندما ادبر . طلبته فما وجدته . دعوته فما أجابنى» (نش ٥ : ٦) .

شعب موسى ، كان عاجزاً عن أن يخلص نفسه من عبودية فرعون . والله هو الذى سعى إلى خلاصه وخلصه . وكما قال موسى : «الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون» (خر ١٤ : ١٤) .

ولكن المهم هو أن هذا الشعب استجاب لعمل الله وسار وراءه ، ودخل فى البحر الأحمر حينما شقه الله أمامه .

واحترس أن تفعل كما فعل اغريباس وفيلكس والشاب الغنى

اغريباس الملك اتته دعوة الله للخلاص . زارته النعمة وتأثر . وقال لبولس الرسول «بقليل تقنعنى أن أصير مسيحياً» (أع ٢٦ : ٢٨) . ومع ذلك لم يخط خطوة إيجابية من جهته ، وانصرف ، ولم يصير مسيحياً .

وفيلكس الوالى زارته النعمة حينما تكلم القديس عن البر والتعفف والدينونة ، فارتعد فيلكس . ولكنه أجل الموضوع وقال لبولس : «إذهب الآن . ومتى حصل لى وقت استدعيك» (أع ٢٤ : ٢٥) . وهكذا لم يشترك مع عمل الروح ، وجعل الفرصة تفلت من يده !

وكذلك الشاب الغنى ، كانت له الفرصة أن يسمع كلمة الخلاص من فم المسيح ، ولكنه سمح لشهوة المال أن تقهره «ومضى حزينا لأنه كان ذا أموال كثيرة» (متى ١٩ : ٢٢).

إذن الله يسعى لخلاصك . يبدأ العمل لأجلك . ولكن عليك أنت أن تستجيب أو تشترك معه أو تخضع لعمله . ولقد صدق القديس أوغسطينوس حينما قال :

[الله الذى خلقك بدونك ، لا يشاء أن يخلصك بدونك] ...

إذن لا بد أن تشترك فى العمل معه : الروح القدس يعمل فىك ، وأنت تستجيب لعمل الروح . لا تطفىء الروح (١ تس ٥ : ١٩) ولا تحزن الروح (أف ٤ : ٣٠) . ولا تقاوم الروح (أع ٧ : ٥١) . وإنما تدخل فى شركة الروح ، بأن تعمل معه . لأن الله لا يريد أن يرغمك على محبته . واعرف أن طول أناة الله ، إنما لكى تقتادك إلى التوبة (رو ٢ : ٤) . فلا تعتمد على طول أناته وعلى محبته وصبره وسعيه إليك ، لكى لا تصل إلى اللامبالاة والتهاون . وهوذا الكتاب يقول : «إن سمعتم صوته ، فلا تقسوا قلوبكم» (عب ٣ : ١٥) .

بأنواع وطرق شتى

إن الله له طرق كثيرة فى اقتياد الناس إلى الخلاص ...

البعض يدعوهم إليه . والبعض يتركهم إلى حين ، إلى أن يلهب قلوبهم بالحب والاشتياق إليه . والبعض يجذبهم بالتجارب والضيقات ، مثلما قاد يونان إلى الطاعة بحوت ابتلعه ، واجتذب أهل السفينة إلى الإيمان بإثارة البحر عليهم ثم تهدئته ، والبعض يقودهم بمجرد الانذار مثلما فعل مع أهل نينوى .

أتشكو من التجارب والضيقات ؟ ربما سيخلصك الرب بالضيقات !

ربما أنت من النوع الذى لا يصلح معه سوى هذا الأسلوب ، أو يكون هذا الأسلوب أكثر سرعة فى اجتذابك إلى الله .

فإن أبتك التجارب ، لا تتضايق . لعلها لخيرك .
خذ الخير الذى فى التجارب ، ولا تركز على ما فيها من ألم .

إن الله لا يجب أن يستخدم العنف معك . ولكن إذا كان هذا العنف - فى حدود احتمالك - نافعاً لك روحياً ، فلا مانع منه إلى حين ...
ونفس الوضع نقوله من جهة المدة . الله يحددها حسب الصالح ... هناك طعام لا يحتمل سوى ربع ساعة على النار لكى ينضج ، بينما طعام آخر قد يحتاج انضاجه إلى ساعتين أو أكثر ...

فلا تفقد رجاءك لطول المدة . إن ذلك لخيرك ...

أما ان كنت ضعيفاً ولا تقدر ، فالله قادر أن يعينك .

إن سعى الله لخلاصنا ، ليس معناه أن نأخذ موقفاً سلبياً على طول الخط ، وعمل النعمة لا يساعد على الكسل . فأماننا قول الرب : « كم مرة أردت ... ولم تريدوا ... » (متى ٢٣ : ٣٧) . قل له : « توبنى فأتوب » « أرددنى فأخلص » ولكن سلم إرادتك له . وثق انه سيعمل فيك ، وسيقويك ... وسيقودك فى موكب نصرته ، بالطريقة التى تناسب طبيعتك . وعند الله طرق كثيرة ...

وإن كان جهدك قليلاً ، كن أميناً فى هذا القليل .

إن صاحب الوزنتين سرّبه الله ، وأعطاه نفس الطوبى التى نالها صاحب الخمس وزنات (متى ٢٥ : ٢٣ ، ٢١) . وقال له كما قال لئلك : « ادخل إلى فرح سيدك » . إن الله لا يطالبك بأكثر من جهدك ، ولا يطالبك بأكثر مما يحتمله ضعف طبيعتك . المهم أن تكون أميناً فى القليل الذى عندك .

وإن كنت لا تملك فى روحياتك حتى القليل ، الله قادر أن يعطيك . وإن كنت غير قادر على الأمانة فى القليل ، قل له اعطنى يارب القدرة والأمانة من عندك .

إن الله الذى نفخ فى التراب ، وجعله نفساً حية ، قادر أن ينفخ فيك ، ويجعلك روحاً حية فى ملكوته ...



اهتمام الله بالأشياء الصغيرة

”انظروا لا تحقروا أحدا هؤلاء الصغار“

(متى ١٠: ٤١٨)

كثيراً ما ينظر البعض إلى حياة القديسين ، وإلى القمم العالية التي وصلوا إليها في حياة الروح ، وإلى عمق الصلة التي عاشوا فيها مع الله ...

وهنا يشعر الإنسان بصغر نفس ويتساءل : هل يمكن أن أكون مقبولاً أمام الله ، وأنا في هذا المستوى الضعيف ، وليس لي شيء على الإطلاق مما وصل إليه القديسون؟!!

هل يمكن أن يقبل الله حياتي البسيطة الصغيرة التافهة ... التي إذا قيست بسير القديسين تكون لا شيء..؟!!

هنا وأريد أن أحدثكم عن الله ، الذي هو إله الصغار ... الله الذي اهتم بالأشياء الصغيرة جداً ، وجعل لها قيمة كبيرة قدامه ... والذي قيل عنه لتعزيتنا :

« المقيم المسكين من التراب ، والرافع البائس من المزبلة ، لكي يجلس مع رؤساء شعبه » (مز ١١٣ : ٧ ، ٨).

الله الذي اختار أناساً صغاراً لم تكن لهم قيمة عند الناس ، ولكن الله كان يعرف قيمتهم ، أو هو جعل لهم قيمة . وامتدت يد الله فرفعتهم .

* * *

١- اختار الصغار في السن ..

وهكذا قال داود عن نفسه : « صغيراً كنت في اخوتي ، ومحتقراً كنت عند بني امي » . كان كذلك عند اخوته . ولكن ماذا فعل الله ؟

أخذ داود الصغير من بين الغنم ، وجعله مسيحاً للرب

عندما دخل صموئيل النبي ليمسح ملكاً من بيت يسي البيت لحمى ، عرض عليه يسي ابناؤه الكبار السمان... عرض عليه اليآب الطويل القامة الحسن المنظر، فقال الرب قد رفضته . ثم عرض عليه ابيناداب وشمه وباقي السبعة ، فكان النبي يقول عن كل منهم « وهذا أيضاً لم يختره الرب » (١ صم ١٦ : ٥ - ١٠) ... واخيراً قال يسي :

« بقى بعد الصغير . وهوذا يرعى الغنم » (١ صم ١٦ : ١١) .

نعم هذا الصغير الذى احتقره أبوه ، وتركه مع الغنم دون أن يسمح له بحضور الحفل الذى يشرفه النبي العظيم صموئيل ... هذا الصغير هو الذى اختاره الرب ليكون له مسيحاً...!

وحلّ روح الرب على داود الصغير من ذلك اليوم فصاعداً ، وصار رجل المزامير ، رجل المزمارة والقيثارة والعشيرة الأوتار ، وواحداً من أشهر أنبياء العهد القديم . حقاً إن الله لا ينظر إلى الأعمار ولا إلى المنظر الخارجى . وكثيراً ما اختار الصغار .

* * *

وكما اختار الله داود الصغير ، اختار أيضاً يوسف الصديق صغير اخوته .

وجعله ملكاً عليهم جميعاً ، وعلى غيرهم . وأتى اخوته إليه ، وسجدوا عند قدميه وهو صغيرهم ..! كما جعله أيضاً أباً لفرعون وسيداً لكل بيته ، وامتسلطاً على كل أرض مصر » (تك ٤٥ : ٨) .

* * *

واختار أيضاً أرمياء النبي الصغير الذى قال : « لا أعرف أن أتكلم لأنى ولد » (أر ١ : ٦) .

وقال له الرب : « قبلما صورتك فى البطن عرفتك . وقبلما خرجت من الرحم قدستك . جعلتك نبياً للشعوب ... ها قد جعلت كلامى فى فمك . انظر . قد وكلتك اليوم على الشعوب والممالك ... ها قد جعلتك اليوم مدينة حصينة ، وعمود حديد . وأسوار نحاس على كل الأرض ، لملوك يهوذا ولرؤسائها ولكهنتها ولشعب الأرض » (أر ١ : ٤ ، ٥ ، ٩ ، ١٠ ، ١٨) .

* * *

نجد أن أحب التلاميذ إلى المسيح كان يوحنا أصغرهم سناً...

وهو الذي جعله الرب أحد الأعمدة الثلاثة في رسله (غل ٢ : ٩) . وأطال عمره أكثر من جميعهم ، وكشف له رؤى السماء ، وجعله كاتب الإنجيل المملوء باللاهوتيات .

ولعل من الصغار الذين أكرمهم الرب القديس مرقس الرسول الذي كتب أول الأناجيل . وكان شاباً صغيراً حدثاً في فترة كرازة السيد المسيح على الأرض ، وبدأ حياته خادماً مع القديس بولس والقديس بطرس .

وبولس الرسول اختار شاباً صغيراً ليخدم معه ، هو تيموثاوس الذي صار أسقفاً لأفسس ، وقال له : « لا يستهن أحد بحدائقك » (١ تي ٤ : ١٢) .

* * *

ومن الصغار الذين اختارهم الرب القديس العظيم الأنبا بيشوى .

اختاره الملاك من بين اخوته ليكون نذيراً للرب ، وكان انحفضهم جسماً ، واضعفهم وأصغرهم . وعرضت أمه على الملاك أن يختار أحد أخوته الكبار الأقوياء ليخدم الرب بقوة . ولكن هذا الصغير النحيف الضعيف كان هو الذي اختاره الرب ليكون « الرجل الكامل حبيب المسيح الذي غسل قدمي مخلصنا الصالح » ...
لا تقل أنا صغير . فعجيب هو الرب في اختياره للصغار ..

القديس أثناسيوس الرسولي كان شاباً صغيراً في مجمع نيقية .

وكان في هذا المجمع المسكوني العظيم ٣١٨ من أشهر الآباء الأساقفة في العالم المسيحي . ومن حيث الرتبة كان أثناسيوس مجرد شماس . ومع ذلك وضعه الله في القمة . واعطاه القوة في الانتصار على أريوس وفي دحض بدعته ، وفي صياغة قانون الإيمان المسيحي .

وصار هذا الشماس الصغير أعظم اللاهوتيين في تاريخ الكنيسة ...

وفي تاريخ الرهبنة ، من أشهر الصغار العظام القديس تادرس تلميذ الأنبا باخوميوس ، والقديس يوحنا القصير ، والأنبا ميصائيل السائح .

لقد سمح أن يكون الشاب الصغير تادرس هو المرشد الروحي في كل أديرة القديس باخوميوس الكبير، بل هو الذى أسس كثيراً من هذه الأديرة، وعين المسئولين فيها... كذلك اختار الرب شاباً صغيراً آخر ليكون المرشد الروحي في برية شيهيت، ذلك هو القديس يوحنا القصير، الذى قيل عنه أن الأسقيط كله كان معلقاً باصبعه. وكان الرهبان يجلسون حوله ويستفيدون من تعليمه... وكان شاباً حدثاً، ولكن له نعمة أكثر من الشيوخ! والقديس ميصائيل صار من الآباء السواح وعمره حوالي ١٧ عاماً.

وأول دير في برية شيهيت «دير البراموس»، تسمى باسم قديسين شابين، هما: مكسيموس ودوماديوس... ومن أشهر السواح القديس الأنبا ميصائيل الذى وصل إلى درجة السياحة وهو في حوالي السابعة عشر من عمره...

إن الله حينما شاء هزيمة جليات، هزمه بفتى صغير.

فتى لا يعرف أن يلبس ملابس الحرب، لأنه لم يتعود عليها (١صم ١٧ : ٣٨، ٣٩)، بل استخدم خمس حصوات ملساء من البرية. وهذا الصغير مسح الرب ملكاً، دون أخوته السبعة الكبار، وهكذا غنى داود أغنيته المشهورة «صغيراً كنت في اخوتى، ومعتقراً عند بنى أمى... أخوتى كبار وسمان... ولكن الله لم يسر بهم»...

«انظروا لا تحتقروا أحد هؤلاء الأصاغر» (متى ١٨ : ١٠).

اهتمام الرب بالأطفال واضح جداً في الكتاب المقدس، فهو الذى أقام طفلاً وسط تلاميذه وقال لهم «إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد، فلن تدخلوا ملكوت الله» (لو ١٨ : ١٦، ١٧). وقال أيضاً «أحمدك أيها الآب... لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء وأعلنتها للأطفال» (متى ١١ : ٢٥). وقال «من أعثر أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بى، فخير له أن يعلق في عنقه حجر الرحى ويفرق في لجة البحر» (متى ١٨ : ٦). اعرف باستمرار أن «الحرب للرب» (١صم ١٧ : ٤٧)، و«ليس للرب مانع أن يخلص بالكثير أو بالقليل» (١صم ١٤ : ٦).

ما أعظم المواهب الروحية والذهنية والفنية التي وهبها الله للصغار.

ما أكثر مواهبه التي وهبها للأطفال والفتيان . داود النبي مثلاً : وهبه الله موهبة الشعر والموسيقى . فكان رجل القيثارة والمزمار والعشرة الأوتار ، وهو بعد حدث صغير ، وكان يحسن الضرب على العود ، ويستطيع أن يبعد الروح النجس عن شاول الملك (١صم ١٦ : ٢٣) . وفوق كل ذلك كان رجل حرب وجبار بأس ، وهو بعد فتى صغير...

* * *

والقديس الأنبا شنوده رئيس المتوحدين وهبه الله نضوجاً روحياً وهو طفل صغير.

فكان يمارس الزهد والصوم والصلاة وهو حدث صغير... إنها موهبة إلهية تدل على اهتمام الله بالصغار . وهكذا كان أيضاً القديس مرقس المتوحد يصوم إلى الساعة التاسعة وهو طفل .

* * *

والقديس تكلا هيمانوت وهبه الله صنع المعجزات وهو طفل .

إنها ليست أمراً موروثاً ، وإنما هي هبة إلهية ، ومواهب الله ليست قاصرة على الكبار ، وإنما الصغار أيضاً يتمتعون بها . وما أكثرها في حياة القديسين الذين بدأوا حياتهم صغاراً ، لأن نعمة الله شاءت أن تعمل فيهم في هذه السن المبكرة ، كما عملت في ارمياء الذي لم يكن يعرف أن يتكلم لأنه ولد ، وكما عملت في صموئيل الطفل ، وفي سليمان وهو فتى صغير .

* * *

ونفس النضوج الروحي كان في السيدة العذراء وهي طفلة .

العمق في الصلاة ، وفي التأمل ، وفي دراسة الكتاب ... كل ذلك وهي طفلة صغيرة يتيمة تربي في الهيكل ... وتسبحتها المشهورة (لو ١ : ٤٦ - ٥٥) تدل على مدى حفظها للمزامير وآيات الكتاب ... كل ذلك وهي صغيرة السن . ولكنها نعمة الله العاملة في هذه الممتلئة نعمة ، التي اختارها الله صغيرة ، ولكن مملوءة بمواهبه .

لعل يوحنا المعمدان كان أيضاً أحد الأطفال الموهوبين .

والتفسير الوحيد لذلك هو قول الملاك المبرر عنه «ومن بطن أمه يمتلئ من الروح القدس» (لوقا : ١٥) ... وهكذا كان الروح القدس يعمل فيه وهو بعد في بطن أمه . لذلك استطاع أن يرتكض وهو جنين في بطن أمه لما سمعت سلام العذراء ، بل أنه ارتكض بابتهاج ، وهو جنين (لوقا : ٤١ - ٤٤) .

إن النضوج المبكر للأطفال الموهوبين ، ليس له تفسير إلا موهبة الله الغنية التي تنسكب على الأطفال بغنى لا يعبر عنه .

المهم أن المواهب التي يعطيها الله للأطفال ، تعطيك رجاء ، وتجعلك تكرر العبارة التي قالها رب المجد : «أحمدك أيها الأب ... لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء وأعلنتها للأطفال» (متى : ١١ : ٢٥) ، «لأنه هكذا صارت المسرة أمامك» .

ماذا نقول عن النضوج المبكر لثناسيوس وطفولته العجيبة ؟

ليس شيئاً سوى موهبة الله التي يمنحها للأطفال بغنى مذهل ، قد تحار فيه العقول البشرية ، وتعللها بأسباب شتى . ولكنها تستريح من خيرتها إن وضعت أمامها عبارتين ، هما : «موهبة الله» و«محنة الله للأطفال» .

هو القديس أنثاسيوس الذي لقبوه بالرسولي ، وهو أصغر من جلس على كرسي مارمرقس ، وهو أعظم من جلس على هذا الكرسي ، وكان بطلاً عظيماً من أبطال الإيمان ، وهو بعد شاب . وصار بطريركاً وهو في حوالي الثلاثين . ووضع كتاباً عظيماً مثل «تجسد الكلمة» و«الرسالة إلى الوثنيين» وهو شاب صغير .

إننا نسعد جداً ، ونبتهج بالرجاء ، حينما نعرف أن نضوج الأطفال المبكر سببه موهبة الله ومحبه .

فالله الذي كان مع هؤلاء الأطفال وأعطاهم بغنى من مواهبه ، هو أيضاً قادر أن يعطينا . المهم أن نتضع ونصير مثل الأطفال حسب وصيته ، ونقف أمامه فارغين

نكتفى بهذه الأمثلة عن الصغار في السن ، ونتكلم عن :

٢- الصغار في العدد

لقد اختار الله الصغار في العدد ، لكي يبارك أو يصنع بهؤلاء الصغار عجباً ...

اختار الله الخمس خبزات والسمكتين ليصنع معجزة عظيمة .

إنه لم يحتقر هذه الكمية الصغيرة ، إنما باركها ، واطعم بها خمسة آلاف من الرجال . وحتى هذا القدر الضئيل كان يحمله غلام صغير (يو ٦ : ٩) . وفي معجزة اشباع الأربعة آلاف من سبعة أرغفة كان معهم « قليل من صغار السمك » (مر ٨ : ٧) . وبهذا القليل ، وبهذه الصغار ، أشبع الرب تلك الآلاف من الناس ..

واختار الله هذه القلة الضئيلة ، ليعطي رجاء لكل قلة ضئيلة .

إن الله يبارك القليل فيصير كثيراً . إن العدد ليس هو المهم ، إنما الأهمية كلها هي في البركة التي في هذا العدد . وبهذه البركة يصنع الله عجباً .
ففي خدمتك لا تيأس من قلة مواهبك . وقل له « استخدمني لاطعامهم كأنني من صغار السمك » .

انظروا في مثل الزارع : ماذا قال الرب عن الزرع الذي كان في الأرض الجيدة ؟

لقد قال :

« فأعطى ثمراً : بعض مئة ، وآخر ستين ، وآخر ثلاثين » (متى ١٣ :

٨) .

نحن نعقل يارب أن الزرع الذي يعطى مئة هو زرع جيد . ولكن هل يقال كذلك عن الذي يعطى ستين ؟ وهل يسمى جيداً من يعطى ثلاثين؟! وهل هذا الانتاج الضئيل هو مقبول عند الله ؟

ولعل الرب يجيب : مادامت الأرض أعطت ثمراً ، إذن فهي أرض جيدة ،

حتى إن أعطت ثلاثين ...

لذلك لا ييأس ولا يفقد الرجاء ، أصحاب الثلاثين . إن الله يقبل هذا القليل منهم ، مادام هذا هو جهدهم . وبارك الرب هذا الجهد كأنه شيء كثير . انظروا ماذا نقول في أوشية القرايين :

أصحاب الكثير وأصحاب القليل . والذين يريدون أن يقدموا وليس لهم .

مجرد هذه الرغبة ، حتى من غير عطاء ، هي شيء مقبول عند الله ، الذى لا يحتقر الشيء القليل . عجيب هو الرب فى أحكامه ، وفى قبوله للقليل . يذكرنى هذا بقول أحد القديسين :

العنقود وإن كانت فيه حبة واحدة ، لا تزال فيه بركة .

ونفس هذا المعنى كرره اشعيا النبي (اش ٦٥ : ٨) .

إن الله يعمل فى القليل ، لكى لا نفتخر نحن بقوتنا ، ونظن أننا ننتصر بالكثرة وليس بقوة الله ، فيكسرنا هذا الفكر .

* * *

وهذا واضح من قصة الحرب التى دخلها جدعون بعدد قليل ...

كان جدعون قد جمع من الشعب جيشاً كبيراً من اثنين وثلاثين ألفاً ليحارب المديانيين . ولكن الرب قال له : « هذا الشعب كثير على لأدفع المديانيين بيدهم ، لثلا يفتخر إسرائيل على قائلاً : يدى خلصتنى » (قض ٧ : ٢) . وظل الرب يغربل هذا العدد الكبير حتى وصل إلى ثلاثمائة جندى فقط .

وبارك الله فى هذا العدد القليل ، فانتصر على جيش المديانيين الذى كان منتشراً كالجراد على الأرض . وماذا أيضاً :

* * *

لما أراد الرب الكرازة بالإنجيل اختار لذلك اثنى عشر رسولاً فقط ..

واستطاع هؤلاء - على الرغم من قلتهم - أن يكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها (مر ١٦ : ١٥) - وإلى أقطار المسكونة بلغت أقوالهم .

فلا تقل مطلقاً نحن قلة . فإن الله يبارك القليل فيصير كثيراً .

من ثمانية أنفس فقط في الفلك ، أعاد الله تكوين البشرية من جديد . ولم يختر لغرضه سوى هذا العدد الضئيل ...

ومن ابن واحد هو اسحق ، استطاع الله أن يأتي بنسل مثل نجوم السماء ورمل البحر في الكثرة ...

وكما تحدثنا عن اهتمام الله بالصغير في السن ، وبالقليل في العدد ، ومباركته هذا وذاك ، تنتقل إلى نقطة أخرى وهي :

٢- الاهتمام بالقليل في النوعية

لما شاء الله أن يهزم جليات الجبار ، هزمه بحصاة ملساء في مقلع صبي صغير هو داود .

فلا تفقد أنت رجاءك ، ولا تقل مواهبى قليلة ، وأنا صغير ، ضئيل الشأن ، لست على مستوى قوة من يبغضوننى . فلتكن حصاة صغيرة في مقلع الرب . وليعمل الرب بك عملاً ، مهما كان جهدك قليلاً .

لأن « الحرب للرب » (١ صم ١٧ : ٤٧) . و « ليس لدى الرب مانع عن أن يخلص بالكثير أو بالقليل » (١ صم ١٤ : ٦) .

أنظر كيف نشر الله ملكوته على الأرض ... إنه لم يختر لذلك جماعة من الفلاسفة أو العلماء أو الجبابرة ، بل اختار مجموعة من الصيادين البسطاء ، وعمل فيهم وبهم ... وكما قال الرسول :

« اختار الله جهال العالم ليخزي الحكماء . واختار الله ضعفاء العالم ليخزي الأقوياء . واختار الله أدنياء العالم والمزدرى وغير الموجود ، ليبطل الموجود ، لكي لا يفتخر كل ذى جسد أمامه » (١ كو ١ : ٢٧ - ٢٩) .

ونحن نقف أمام هذه العبارة مبهورين .. ! قد تعبر في فهمنا كلمة الجهال والضعفاء... لكن ماذا عن المزدري وغير الموجود؟! ... ما هذا العجب؟ كيف يمكن للرب أن يختار المزدري وغير الموجود؟!!

لا شك أن هذه العبارة تحيي الرجاء في نفس كل إنسان ، مهما كان ضعيفاً ، ومهما كان بلا مواهب وبلا امكانيات وبلا قدرات من كل ناحية ...

لذلك إن حوربت باليأس قل له : اعتبرنى يارب ضمن المزدري وغير الموجود ، ولا تحرمنى من العمل معك ... ليكن لى كيان قدامك ، مع أننى فى نظر نفسى - وربما فى نظر الناس - مزدري وغير موجود ...

ربما يظن البعض أن السيد المسيح لو كان قد جاء فى أيامنا ، لكان يختار أصحاب الشهادات العالية جداً واساتذة البحوث !

كلا ، صدقونى ، لأنه لا يجب أن يفتخر كل ذى جسد أمامه ، ولثلا تنسب البشارة إلى العقل البشرى وليس إلى عمل الروح القدس . فلو كان المسيح جاء فى أيامنا ، ما كنت استغرب أن يختار بعضاً من البسطاء كما فعل من قبل ، أو مجموعة من عمال التراجيل ...

فليس مصدر القوة هو الإنسان وإنما روح الله العامل فيه .

والله يجب أن يستخدم الصغار ، لكى لا يفتخروا ، ولكى لا ييأس أحد من عمل الله فيه . فلا يفشل أحد ، ولا تصغر نفس إنسان ما .

الله نشر الكرازة بائنى عشر رجلاً ، وما كانوا أصحاب مواهب .

بل كانت غالبيتهم من الصيادين ، إنما المهم هو عمل الله فيهم . والثالث عشر الذى هو بولس ، لم يعتمد على الثقافة والمواهب ، بل قال لأهل كورنثوس « وأنا لما أتيت إليكم أيها الأخوة ، أتيت ليس بسمو الكلام أو الحكمة » (١ كو ٢ : ١) . لماذا؟ يقول « ليس بحكمة كلام ، لثلا يتعطل صليب المسيح » (١ كو ١ : ١٧) ، لثلا تحسب المسيحية فلسفة ، أو ينسب نجاح الكرازة إلى الحكمة وليس إلى عمل النعمة .

* * *

إن باب الملكوت مفتوح للكل ، وكذلك باب الخدمة ...

ليس فقط للذين يقولون إنهم وصلوا إلى الملء ، ويتكلمون بألسنة !! ولهم المواهب ، ويرتعشون في الصلاة..! بل إن باب الملكوت مفتوح أيضاً أمام المبتدئ ، الحديث في العمل الروحي ، الذى لا يعرف أن يتكلم لأنه ولد (أر ١ : ٦) .

فلا يظن أحد أنه إن لم يصعد إلى القمة في الروحيات ، فهو لم يصل بعد إلى الله !

ولا تحتقروا أمثال هؤلاء الذين لم يصلوا إلى القمم . ولا تصغر نفوس هؤلاء ، فإن الله يعمل في الكل ، ويستخدم حتى « القليل من صغار السمك » ...

وما أجل العبارة المعزية التى قالها القديس يوحنا المعمدان :

إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم (لو ٣ : ٩) .

والى مَنْ ترمز الحجارة ؟ إلى صم بكم لا يتحدثون ، بلا حركة وبلا حياة... هؤلاء ، الرب قادر أن يقيم منهم أولاداً لإبراهيم .

إذن لا تفقد رجاءك مطلقاً ، مهما كنت بلا حياة . فأنت ولا شك أفضل من حجارة كثيرة ...

* * *

أمامنا مثل آخر واضح فى ميلاد المسيح يدل على اهتمام الله بالصغار :

لقد وُلد فى مزود بقر ، وليس فى قصر ضخم . وولد فى قرية صغيرة هى بيت لحم ، وليس فى المدينة العظمى أورشليم .

واستطاع أن يحوّل المزود إلى مزار عالمى ومقدس من المقدسات الكبرى . أما بيت لحم فقال لها : من الآن فصاعداً « لست الصغرى بين رؤساء يهوذا » (متى ٢ : ٦) . رفعها فوق بلاد كثيرة ، ومنحها قيمة بميلاده فيها .

ولعل هذا يذكرنا بدعوة الرب لجدعون ، الذى شعر بصغر نفس ، لضآلة أصله وبلده ، فقال :

ها عشيرتى هي الذلى فى منسى ، وأنا الأصغر فى بيت أبى (قض ٦ :
١٥) .

ولكن الرب كان يبحث عن هذا الأصغر ، ليظهر مجد الله فيه .

لذلك لا تفقد رجاءك إن كنت صغيراً . إن كنت مزوداً ، أو قرية صغيرة ، أو
كنت الأصغر فى بيت أبىك ، أو إن كانت عشيرتك هي الذلى بين باقى العشائر... !
إن الله قادر أن يعمل فىك ، ويرفع شأنك فتصير شيئاً آخر ما كنت تفكر فيه ...

إنه موقف يشجع الضعفاء والمساكين ، الصغار والأذلاء ...

انظروا فى اختيار موسى النبى ، تروا موقفاً عجبياً ... كان موسى « ثقيل الفم
واللسان ... وليس صاحب كلام لا من اليوم ولا أمس ، ولا قبلاً من أمس » (خر ٤ :
١٠) .

ومع ذلك اختار الله هذا الثقيل الفم واللسان ليكون كلم الله ..

لم ينزع منه هذا النقص ، وإنما أرسل له هارون أخاه ، لكى « يكون له فماً »
وقال الله لموسى : « وأنا أكون مع فمك ، واعلمك ما تتكلم به » (خر ٤ : ١٦ ،
١٢) . وبهذا الإنسان الثقيل الفم واللسان ، أذل الله فرعون ...

إن قلة المواهب لا تعوق عمل الله ، ولا تدعو الإنسان أن يفقد الرجاء فى القدرة
على القيام بالمسئوليات ... فباستمرار ثق بالله الذى قيل إنه « يعطى المعيب قدرة ،
ولعديم القوة يكثر شدة » (إش ٤٠ : ٢٩) .

إن الله يستخدم الصغار والضعفاء . وهنا نسأل سؤالاً : عندما قاد الله يونان النبى
إلى التوبة والصلح معه ، بماذا هداه ؟

استخدم الله فى هداية يونان : الدودة ، واليقطينة ، والريح والموج ، وأشعة
الشمس . فكانت كل منها تؤدى رسالة إلهية ... (يون ١ ، ٤) .

اليقطينة التي بنت ليلة كانت ، وبنت ليلة هلكت ، استخدمها الله في تحقيق مقاصده ، وكذلك الدودة التي لا قيمة لها عند أحد !

قل له : احسبني يارب دودة ، احسبني يقطينة ، احسبني موجة ، احسبني شعاعاً . فلا تكن أى شيء مهما كان تافهاً في ملكوتك ، ولكن يصنع مشيئتك .
وإن كنت دودة لا تفقد رجاءك ، سيكون لك دور عند الله ... وإن كنت يقطينة ، لا تصغر نفسك . سيأتى وقت تعطى فيه درساً لنبي كيونان ، ويكتب إسمك في كتاب الله ... !

ع- اهتمام الله بالأشياء الصغيرة

اهتم الله بالأطفال ، وتحدث عنهم بكل حب وتقدير ..

كان يحتضنهم ويعطف عليهم ويقول « دعوا الأولاد يأتون إليّ ولا تمنعوهم ، لأن لمثل هؤلاء ملكوت السموات » (متى ١٩ : ١٤) .

وأخذ ولداً وأقامه في الوسط ، وقال لتلاميذه « إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد ، فلن تدخلوا ملكوت السموات . فمَنْ وضع نفسه مثل هذا الولد ، فهو الأعظم في ملكوت السموات . ومَنْ قبل ولداً واحداً مثل هذا بإسمى فقد قبلنى » (متى ١٨ : ٥-٢) .

واهتم بنفسية هؤلاء الصغار ، والبعد عن إعتارهم ، فقال :

مَنْ أعتار أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بى ، فخير له أن يعلق في عنقه حجر الرحى ، ويفرق في لجة البحر » (متى ١٨ : ٦) .

إن الله يهتم بالصغار من كل نوع ، سواء في سنهم ، أو في روحياتهم ، أو نوعيتهم عموماً ، أو في ضآلتهم وضعفهم . رعايته تشمل الكل .

لقد اهتم حتى بالقصبة المروضه وبالفتيلة المدخنة ..

ف قيل عنه في الإنجيل « قصة مروضه لا يقصف ، وفتيلة مدخنة لا يطفىء »
(متى ١٢ : ٢٠) . إنه يعطى رجاء لكليهما . فالقصبة المروضه قد تربط وقد
تعصب . والفتيلة المدخنة قد يرسل لها ريحاً فتشعلها .

والشجرة التى لم تعطِ ثمرأ ، أعطاها رجاء وفرصة أخرى .

فلما امتدت الفأس لتوضع على رأس هذه الشجرة ، قال فى حنوه « اتركها هذه
السنة أيضاً ، حتى انقب حولها وأضع زبلاً . فإن صنعت ثمرأ ، وإلاً فقيما بعد
تقطعها » (لو ١٣ : ٧ - ٩) . إنه لم يقطع الرجاء حتى بهذه التى استمرت ثلاث
سنوات بلا ثمر .

وهو يعطى قيمة حتى للنملة الصغيرة ، ويقدمها درساً للبشر ...

فيقول : « اذهب إلى النملة أيها الكسلان . تأمل طرقها وكن حكيمأ ... » ونحن
نقول : ما هى هذه النملة يارب حتى تخلصها ، وتمنحها هذه الطبيعة النشطة ، وتضرب
بها المثل فيما وهبتها إياه من نشاط ومهارة وقدرة ...؟! وكأن الله يجيبنا و يقول :

لا تظنوا انى فقط خالق التنانين ، وإنما أيضاً خلقت الحشرات والهوام وأرعى
هذه وتلك .. وأهتم حتى بالعصافير التى يباع اثنان منها بفلس واحد . وأعطى طعامأ
لفراخ الغربان التى تدعونى (مز ١٤٧ : ٩) . عجيب هو الرب الذى يخلق هذه
الأشياء الصغيرة ويهتم بها . بل يهتم حتى بالدودة التى تسعى تحت حجر ، وبالزنبقة
التي يلبسها أفضل من سليمان فى كل مجده (متى ٦ : ٢٩) .

إنه يضرب لنا مثلاً للإيمان وملكوت السموات بحبة الخردل التى هى أصغر
جميع البذور .

فيقول يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها إنسان وزرعها فى حقله ، وهى
أصغر جميع البذور . ولكن متى نمت فهى أكبر البقول ، وتصير شجرة ، حتى إن طيور

السماء تأتي وتتأوى في أغصانها» (متى ١٣ : ٣١ - ٣٢).

ويقول أيضاً « الحق أقول لكم لو كان لكم إيمان مثل حبة الخردل ، لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل . ولا يكون شيء غير ممكن لكم » (متى ١٧ : ٢٠).

إذن لا تفقد رجاءك ولو كان إيمانك صغيراً كحبة الخردل .

إنه يمكن أن ينمو ويصير شجرة تتأوى إليها الطيور . والله يقبل هذا الإيمان وباركه . وأيضاً ...

في الإيمان والملكوت يضرب مثلاً بخميرة صغيرة تخمر العجين كله .

فيقول : « يشبه ملكوت السموات خميرة أخذتها امرأة ووضعتها في ثلاثة أكيال دقيق حتى اختمر الجميع » (متى ١٣ : ٣٣) . وقد تذكر بولس الرسول هذا المثل فقال لأهل غلاطية : « خميرة صغيرة تخمر العجين كله » (غل ٥ : ٩) .

إذن لا تفقد رجاءك مهما كان إيمانك قليلاً ، ومهما كان عملك ضئيلاً ، فالله يقبل القليل وباركه ليصير كثيراً .

إن الرب قد أعطى في ملكوته رجاء حتى للعرج والجدع ...

فقال لعبده بعد أن أعد الوليمة العظيمة « اخرج عاجلاً إلى شوارع المدينة وازقتها ، وادخل إلى هنا المساكين والجدع والعرج والعمى » (لو ١٤ : ٢١) .

بل قال أيضاً كوصية : « إذا صنعت ضيافة فادع المساكين الجدع العرج العمى . فيكون لك الطوبى إذ ليس لهم حتى يكافئوك » (لو ١٣ : ١٣) . فإن حوربت بفقد الرجاء ، تذكر هؤلاء الذين ليس لهم ، والذين قبلهم الرب بدون مقابل ...

هنا ونذكر ملاحظة هامة في معجزة الخمس خبزات والسمكتين :

إن الله اهتم بالكسر ، فأمر بجمعها ، وحملها الرسل ..

لعلك تقول ليتنى كنت خبزة فى يد الرب ، يباركها ويطعم بها الألوف ، وهكذا
يمكننى أن أصلح لشيء فى الخدمة ! أقول لك : حتى لو لم تكن خبزة ، وكنت مجرد
كسرة ملقاة على الأرض لم تجد من يأكلها... ستسمع قول الرب « اجمعوا الكسر »
وسياتى وقت تستطيع فيه أن تشبع الآخرين .

إذن إن كانت أعمالك الروحية ضعيفة ، قل له فى اتضاع : ادخلنى يارب مع
المساكين والجدع والعرج والعمى إلى ملكوتك . وكما اهتمت بجمع الكسر فى معجزة
الخمسة خبزات والسمكتين ، اعتبرنى أنا أيضاً من هذه الكسر ، ليأخذنى رسلك معهم
فى سلاهم وقفهم . أنا يارب من هذه الكسر . اجمعنى فى سلتك المباركة .

لا تظن انه يجب أن تصعد إلى أعلى ، لكى تقابل الله .

بل إنك كلما شعرت أنك لا شيء ، ولا استحقاق لك على الاطلاق ، وهبط قلبك
إلى أسفل ، فهناك تلتقى بالله .

وهكذا كلما نزلت إلى أسفل صعدت إلى أعلى .

حقاً إن الإنسان يصعد فى هبوطه ، ويهبط فى صعوده ..

وقد قال الرب فى ذلك « كل من يرفع نفسه يتضع . ومن يضع نفسه يرتفع » (لو
١٣ : ١١) .

لقد ضرب لنا ثلاثة أمثلة فى اهتمامه بالصغار فى الاصحاح الخاص بقبوله
للتائبين وبعثه عنهم (لو ١٥) .

رجوع الابن الضال بانسحاق قلب ، قابله الرب بفرح كبير ، ومكافآت عديدة... ثم
ماذا عن الخروف الضال ؟ من ذا الذى يستطيع أن ينظر إلى حظيرة فيها مائة خروف
فيلمح أنها مجرد ٩٩ ، ويبحث عن الواحد الناقص إلى أن يحمله على منكبيه فرحاً ، بل
من ذا الذى يهتم بدرهم واحد مفقود ، ويظل يبحث عنه حتى يجده ، ويفرح بوجوده .
ألا يعطيك هذا رجاء فى عمل الله من أجلك ! هو يبحث عنك ، إن لم تبحث أنت
عنه ...

ومن اهتمام الله بالصغار ، اهتمامه بقرية بيت لحم الصغيرة .

هذه التي قال لها الوحي الإلهي « وأنت يا بيت لحم ... لست الصغرى بين رؤساء يهوذا ، لتكوني قدساً ومكاناً للميلاد المجيد... »

ومن اهتمامه بالصغار ، اختياره ليثة المكروهة الضعيفة العينين (تك ٢٩ : ١٧ ، ٣٣) .

ليثة هذه التي كانت صغيرة القدر والمكانة بالنسبة إلى أختها راحيل ، هي التي اختارها الرب لتكون أمّاً ليهوذا سبط الملوك ، وأمّاً للاوى سبط الكهنوت ، وجدة للمسيح ، فأتى من نسلها ولم يأت من نسل راحيل ...

بل اختار الرب راحاب الزانية وكذلك ثامار ضمن سلسلة الأنساب ، واختار راعوث الموآبية ضمن سلسلة الأنساب أيضاً (متى ١ : ٣ ، ٥) ... بل اختار مريم المجدلية التي كان عليها سبعة شياطين لتكون مبشرة للرسول (مر ١٦ : ٩ ، ١٠) . بل أنه اختار التراب ليجعل منه صورته ومثاله . فلا تياس إذن من عمل الله معك واختياره لك ...

إنه « المقيم المسكين من التراب ، والرافع البائس من المزبلة ، ليجلسه مع رؤساء شعبه » (مز ١١٢) .

إذن الله قادر أن يقيمك مهما كانت حالتك ، بل يرفعك أيضاً لتجلس مع رؤساء شعبه أليس هو الذي لا يحتقر قصبة مرضوضة ، ولا فتيلة مدخنة ، يأمر بتشجيع صغار النفوس ، وأن نسند الضعفاء ونتأني على الجميع « (اتس ٥ : ١٥) . بل ما أجل قول الكتاب « قوموا الأيادي المسترخية والركب المخلعة » (عب ١٢ : ١٢) ، حتى إن كنت من هذا النوع ، سوف لا يهملك الله ، بل سيرسل لك من يقومك ...

بل خذ مثال اهتمامه بالعصفور ، كرمز لاهتمامه بك .

إنه يقول « أليس عصفوران يباعان بفلس ، وواحد منهما لا يسقط على الأرض

بدون أبيكم» (متى ١٠ : ٢٩) فالذى يهتم بالعصفور لا شك يهتم بك أيضاً . ولذلك يقول بعدها مباشرة «وأما أنتم فحتى شعور رؤوسكم جميعها محصاة . فلا تخافوا ، أنتم أفضل من عصافير كثيرة» (متى ١٠ : ٣٠) .

ويعجب الرب بالعصافير في إيمانها بأن الله يقوتها ويقول في ذلك « انظروا إلى طيور السماء . إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن . وأبوك السماوى يقوتها» (متى ٦ : ٢٦) . وهكذا يذكرها ويضرب بها مثلاً لنا ، هي «وفراخ الغربان التى تدعوه» (مز ١٤٧ : ٩) .

إنه يهتم بالدودة التى تسعى تحت حجر ، ويعطيها طعامها ...

كم بالأولى أنت ، يعطيك طعام الروح ، وطعام الجسد أيضاً . أليس الإنسان أفضل من ديدان كثيرة؟! الدودة الصغيرة استخدمها الله ليعطى درساً ليونان النبى ، حينما أعدها الله لتضرب اليقطينة (يون ٤ : ٧) . حسن أن هذه الدودة ذكرت في الكتاب المقدس ، وهى تؤدى رسالة تؤول إلى توبة نبى .

* * *

٥- الله يهتم بالعمل الصغير

إنه لا ينسى كأس الماء البارد الذى تقدمه لعطشان .

وقد قال فى ذلك : « من سقى أحد هؤلاء الصغار كأس ماء بارد فقط باسم تلميذ ، فالحق أقول لكم إنه لا يضيع أجره» (متى ١٠ : ٤٢ ؛ مر ٩ : ٤١) .

مجرد كأس ماء بارد ، لم تتعب فيه ، ولم يكلفك شيئاً ، هذا لا يضيع أجره . إذن لا تياس إن كانت أعمالك

* * *

هناك أعمال أنت تعملها وتنساها لضآلتها . والله لا ينساها . حتى إن كانت فى نظرك بلا قيمة ، هى عند الله لها قيمتها ، ويكافئك عليها فى اليوم الأخير . وحسن انك نسيته لتأخذ أجرها كاملاً هناك .

لقد مدح الرب ملكة التيمن لمجرد أنها زارت سليمان .

وقال : « ملكة التيمن ستقوم في (يوم) الدين مع هذا الجيل وتدينه ، لأنها أتت من أقاصي الأرض لتسمع حكمة سليمان . وهوذا أعظم من سليمان ههنا » (متى ١٢ : ٤٢) . وبنفس الوضع مدح أرملة صرفة صيدا لأنها استضافت إيليا النبي في وقت المجاعة (لوقا : ٤ : ٢٥ ، ٢٦) .

* * *

ولم ينس الرب زيارة نيقوديموس ، مع أنها كانت ليلاً وبخوف ...

وسمح أن تسجل هذه الزيارة في الإنجيل (يو ٣) . وهذا الايمان الخائف المتخفى الذي كان لنيقوديموس ، باركه الرب وفناه حتى سمح له أن يكفنه . وصار نيقوديموس من مشاهير المسيحيين فيما بعد ، وصار جندياً صالحاً في ميدان الخدمة ...

ولم ينس الرب لزكا مجرد صعوده على الجميزة ليراه .

ربما لم يحس زكا أن هذا عمل كبير يكافأ عليه من الرب . ولكن الله الذي يهتم بكل عمل مهما كان صغيراً ، وقف ونادى زكا ، ودخل بيته . وقال له : « اليوم حدث خلاص لأهل هذا البيت إذ هو أيضاً ابن لإبراهيم » (لوقا : ١٩ : ٩) . هل كان يخطر على بال زكا أن الرب سيقدر صعوده إلى الجميزة كل هذا التقدير؟! أم هو الرب الذي يهتم بالعمل مهما كان صغيراً .

* * *

إنه لم ينس مطلقاً عبارة اتضاع تلفظت بها المرأة الكنعانية .

وطوبها قائلاً لها « عظيم هو إيمانك . ليكن لك كما تريدن وشفى إبنتها في تلك الساعة » (متى : ١٥ : ٢٨) كذلك لم ينس لشعبه مجرد خروجهم وراءه في البرية (أرميا : ٢ : ٢) ، مع أنهم كانوا في البرية متذمرين وقساءة القلوب . قال لشعبه :

« قد ذكرت لك ... ذهابك ورائي في البرية » (أرميا : ٢ : ٢) .

قال هذا على الرغم من أخطاء هذا الشعب في البرية ، وعلى الرغم من تدمره وجحوده .. ولكن مجرد خروجه وراء الرب ليعبده في البرية لم ينسه الرب

وقال لتلاميذه : « أنتم الذين ثبتتم معي في تجاربي » (لو ٢٢ : ٢٨) .

مع أن ثباتهم كان ضعيفاً ، هؤلاء الذين لم يستطيعوا أن يسهروا معه ساعة واحدة (متى ٢٦ : ٤٠) والبعض منهم خاف وهرب ... ساعة القبض عليه ، وبطرس انكره ثلاث مرات ، ولم يقف معه عند الصليب سوى واحد فقط هو يوحنا ، إلا أن مجرد سيرهم وراءه وتمسكهم به كمعلم لهم ، كل هذا الذي كان في نظرهم شيئاً بسيطاً لم ينسه الرب مطلقاً . وبنفس الاسلوب

* * *

وامتدح الرب الذين جاءوا في الساعة الحادية عشرة .

مع أنهم جاءوا في آخر النهار ، ولم يعملوا سوى ساعة واحدة . ولكنه مع ذلك قبل منهم هذه الساعة ، وأعطاهم أجره كالباقيين . ولم يرفض هذه الساعة ، بل امتدحها . على الأقل تدل على أنهم مثمرون وقادرون على العمل .

* * *

وكما قبل القليل من هؤلاء ، قبل أيضاً فلسى الأرملة .

ومدحها ، وقال إنها أعطت أكثر من الجميع ، لأنها أعطت من أعوازاها (مر ١٢ : ٤٤) . وقد يكون الفيلسوف شيئاً تافهاً . ولكن الاعطاء من العوز هو شيء كبير جداً عند الله أياً كانت الكمية المعطاة .

لذلك إن صليت مجرد دقائق من أعواذك ، يقبلها الله ...

إن ضاق بك الوقت جداً ، ولم تجد - مرغماً - سوى لحظات ترفع فيها قلبك إلى الله ، فلا تصغر نفسك ، ولا تفقد رجاءك إذ لم تستطع أن تصلي كما ينبغي ! كلا ، إن الله يفحص القلب ويعرف ظروفك ، وهل الأمر عن اهمال أو لا مبالاة أم أنك تعطي من أعواذك في الوقت .

* * *

كانت صلاة العشار قصيرة ، جملة واحدة ، وقبلها الله ...

وخرج هذا العشار مبرراً دون القريسي (لو ١٨ : ٩ - ١٤) لأنه كان يصلي من

قلبه، وبانسحاق ، ولا يجزؤ أن يرفع نظره إلى فوق. فكانت الجملة الواحدة التي قالها، هي عند الله كثيرة الثمن جداً وغالية عليه. ولم يطالبه الله ببرنامج روحي طويل فوق مستواه، كما يفعل القديسون. بل اكتفى الرب بانسحاق العشار...

كذلك فإن الله قبل من اللص اليمين توبة قدمها في آخر ساعات حياته (لوقا ٢٣ : ٤٣) ورضى من السامرية بما اعتبره اعترافاً، مع أنها لم تشرح كل شيء... (يوحنا ٤ : ٤٣). وطوب وكييل الظلم - على الرغم من أخطائه - لمجرد اهتمامه بمستقبله (لوقا ١٦ : ٨).

* * *

لا تياس إن كان عملك الروحي ضعيفاً وثمرك قليلاً .

لا تقل « لا فائدة . أنا لم أعمل شيئاً » وتياس بسبب ذلك . واعلم أن الله لا ينسى أى عمل بسيط ، ربما تكون أنت قد عملته ونسيته . إنه لم ينس ملكة التيمن أنها سافرت لتسمع حكمة سليمان . وبسبب هذا العمل الذى يبدو بسيطاً ، قال إنها ستقوم فى يوم الدين وتدين ذلك الجليل (متى ١٢ : ٤٢) .

* * *

انظر فى اهتمام الرب بالعمل الصغير ، قول القديس ذهبى الفم :

إن الله يجول طالباً سبباً لخلاصك ، ولو دمة واحدة ...

حقاً إن الرب يرضى بالقليل مادام بروح طيبة ، ومادام الإنسان أعجز من أن يفعل أكثر . ويأخذ الرب هذا القليل وينميه ويجعله كثيراً . فلا تياس ، ولا تجعل الشيطان يحاربك قائلاً : ماذا فعلت ؟! هوذا الله يطلب منك الكمال (متى ٥ : ٤٨) !
نعم إن الله يطلب الكمال ، ولكنه لا يطلب منك أكثر مما تقدر عليه .

إنه يضع فى حسابه لك : امكانياتك وظروفك . وهو يقبل منك التدرج ... المهم أن تكون سائراً فى الطريق ، وليس أن تكون وصلت إلى نهايته . وهو يعطيك فرصة ويطيل أناة عليك ، لكى يقودك إلى التوبة .

ولكن طول أناة الله لا تجعلنا نتهاون ونتكاسل !

وثمرنا القليل لا يعنى أن نرضى به ونكتفى ! كلا ، وإنما نجاهد وننمو ، ولكن فى رجاء ، غير يائسين ، بل طالبين من الله أن يقوى ضعفنا ، ويمنحنا النعمة والمعونة لكى نعمل فى كل حين ما يرضيه ...



الله
حَنُونٌ
عَطُوفٌ

في الإنسان قسوة ، أما الله ففيه حنو ورفق ، ولذلك عندما نُخبر داود النبي بين ثلاث عقوبات قال عبارته الشهيرة «أقع في يد الله، ولا أقع في يد إنسان، لأنّ مراحم الله واسعة» (٢صم ٢٤ : ١٤) وهكذا نرى أن أيوب الصديق لما وقع في أيدي أصحابه الثلاثة، اشبعوه مذمة واتهاماً، حتى قال لهم «حتى متى تعذبون نفسي وتسحقونني بالكلام!؟ هذه عشر مرات اخرزيتموني» (أى ١٩ : ٢ ، ٣) أما الله فهو رؤوف ومتحنن ، ومن أمثلة تحننه .

أَعْطَانَا وَصَايَا فِي مَسْتَوَى احْتِمَالِنَا

تدرج معنا تدرجاً كبيراً من وصايا العهد القديم إلى كمال العهد الجديد . وقد لام الكتبة والفريسيين لأنهم يحملون الناس أثقالاً عسرة الحمل، وهم لا يريدون أن يحركوها باصابعهم وقال لهم إنهم في ذلك قد اغلقوا أبواب الملكوت، فما دخلوا ولا جعلوا الداخلين يدخلون (متى ٢٣ : ٤ : ١٣) .

وهكذا نرى تلاميذ الرب في أول مجمع لهم في أورشليم الخاص بقبول الأمم، يقولون «لا يثقل على الراجعين إلى الله من الأمم، بل يرسل إليهم أن يمتنعوا عن نجاسات الأصنام والزنى والمخنوق والدم» (أع ١٥ : ١٩ ، ٢٠) والقديس بولس الرسول يقول لأهل كورنثوس :

«سقيتكم لبناً لا طعاماً ، لأنكم لم تكونوا بعد تستطيعون» (١ كو ٣ : ٢) .

ومن رافة الله وعطفه ، أنه حينما يعطى وصية ، يعطى معها قوة لتنفيذها ، فترافقنا نعمته لكيما نستطيع و يعطينا روحه القدوس ليعمل فينا ، لكي نستطيع أن نعمل .

والله في رافته يتراءف على خليقته كلها ، ليس الإنسان فحسب ، بل حتى الحيوان والطبيعة .

حنوّالله ورأفته على الحيوان

إن الله الذى منح الإنسان راحة فى السبت، اعطى ذلك للحيوان أيضاً، فقال «وأما اليوم السابع فسبت للرب إلهك... لا تعمل فيه عملاً ما، أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك، وثورك وحمارك وكل بهائمك» (تث ٥ : ١٤).

* * *

ولم يهتم فقط براحة الحيوان بل براحة الأرض أيضاً .

فقال : ست سنين تزرع أرضك وتجمع غلتها... وأما فى السابعة فتريحها وتركها» (خر ٢٣ : ١٠ ، ١١ ؛ لا ٢٥ : ٣ - ٥) . وعلى الرغم من التشديد فى حفظ السبت، وعدم العمل فيه، قال الرب «من منكم يسقط حماره أو ثوره فى بئر، ولا ينشله حالاً فى يوم السبت؟!» (لو ١٤ : ٥) وقال أيضاً «من منكم له خروف واحد . فإن سقط هذا فى السبت فى حفرة، أفما يسكه ويقيمه؟!» (متى ١٢ : ١) وقال كذلك لمن لامه على ابراء المرأة المنحنية فى يوم السبت، «يا مرائى، ألا يجعل كل واحد منكم فى السبت ثوره أو حماره من المذود ويمضى به ويسقيه» (لو ١٣ : ٥) .

هكذا جعل انقاذ أو إطعام ثور أو حمار أو خروف استثناء واجباً من وصية عدم العمل فى السبت .

ومن شففته على الحيوان أيضاً قال «لا تطبخ جدياً بلبن أمه» (خر ٢٣ : ١٩ ؛ تث ١٤ : ٢١) وقال أيضاً «لا تكم ثوراً دراساً» (١ كو ٩ : ٩) . وحتى الآن الثور أثناء الدراسة لا يكمم، بل يمد فمه ويأكل كيفما يشاء، ومن اهتمام الله بالعطف على الحيوان، قال أيضاً :

« لا تحرث على ثور وحمار معاً » (تث ٢٢ : ١٠) .

ذلك لأنهما ليسا بقوة واحدة فإن اسرع الثور سيرهق الحمار والله يشفق على هذا الحمار من الارهاق . وهكذا عندما دخل السيد المسيح إلى اورشليم ركب على أتان وجحش ابن اتان (متى ٢١ : ٥) حتى يريحهما فى الطريق، إذ يستبدلهما، فيركب

على الواحد ويريح الآخر وظهرت شفقة الرب على الحيوان باشفاقه على حمار بلعام وتوبيخه بلعام على ضرب حماره ظلماً» (عد ٢٢ : ٣٢) .

وظهرت شفقة الرب حتى على العصافير : بحميتها ويقيتها .

وهكذا يقول « أليس عصفوران يباعان بفلس ، وواحد منهما لا يسقط على الأرض بدون أبيكم ؟ » (متى ١٠ : ٢٩) أى بدون سماح منه لا يسقط عصفور... ويقول أيضاً « انظروا إلى طيور السماء ، إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن ، وأبوكم السماوى يقوتها » (متى ٦ : ٢٦) وليست هى فقط ، بل يقول المزمور :

« يعطى البهائم طعامها ، وفراخ الغربان التى تدعوها » (مز ١٤٧ : ٩) .

حتى فراخ الغربان يارب !؟ نعم . فالغربان أيضاً ذكرها الكتاب ، وكانت لها رسالة ! إيليا النبي فى وقت المجاعة ، كانت الغربان تأتية بطعام (١ مل ١٧ : ٤ - ٦) وهكذا كان يحدث مع الأنبا بولا السائح ، وكما اهتم الرب بالطيور ، والعصافير والبهائم « اهتم أيضاً بالخروف الضال وبحث عنه حتى وجده » (لو ١٥) .

واهتم الله بالحيوانات وبالطيور فى فلك أبينا نوح !

ادخلها جميعها فى الفلك ، ولم يهمل أحداً منها حتى الحشرات والهوام ، استبقى لها حياة لتعيش ، وكان أبونا نوح يقدم لها الطعام كل يوم... إن فى ذلك لعجباً ... أقصد هذا العطف العجيب .

وكما يشفق الله على الحيوان فيمنحه حماية من الطبيعة ومن الافتراس .

الدب القطبى ، أو الثعلب القطبى ، يعيش الواحد منهما فى جوبارد جداً ، لذلك يمنحه الله فراء ثميناً لتدفئته ، تشتهيئه النساء الثريات ، وتدفع فى شرائه ثمناً وقيراً ، أما حيوانات البلاد الحارة فلا تحتاج إلى فراء فيعفيها الرب منه ... ولأن الجمل يعيش فى الصحراء ، لذلك يعطيه الله قوة عجيبة يتحمل بها العطش والجوع ، ويعطى نفس القوة على الاحتمال للنخلة فى الصحراء .

وكما يعطى الحيوانات المفترسة مخالب وأنياب لتعيش كذلك يعطى الحيوانات الضعيفة وسيلة للهروب .

الأسد أقوى من الغزال ، يستطيع أن يفترسه . ولكن الرب يعطى الغزال قوة عجيبة في الجرى ، يمكنه أن يهرب من الأسد ، كذلك الكلب يستطيع أن يفترس القط . ولكن الرب يعطى القط القدرة التي يمكنه بها القفز على الأشجار والجدران فينجو من الكلب ... وبنفس الطريقة يعطى العصافير خاصية الطيران فتنجو، كما يعطى الفأر القدرة على الحفر والاختباء ، فينجو... ما أعجب شفقة الله .

* * *

أنظروا جمال الصوت الذى يعطيه الرب للبلابل وللطيور المغردة... انظروا جمال الشكل الذى يعطيه الرب للطاووس ، بل للفراشة ، أنظروا جمال الرائحة التى يعطيها الرب للورود والفل والياسمين ، والأزهار العطرة . تأملوا القدرات العجيبة التى يعطيها الله للنحلة فى صنع بيوتها بهندسة دقيقة ، وفى صنع الشهد من الرحيق ، بل فى صنع غذاء الملكات ، كل ذلك الذى يأخذه البشر منها طعاماً ودواءً... بل تأملوا النملة فى نشاطها وحركتها الدائبة... إن الله يعطى خليقته من هذه الصفات ما يكون أمثلة أمام الإنسان يشتهى أن يحاكيها .

وإن كان هذا عطف الله على مخلوقاته ، فكم بالأولى على الإنسان .

حنو الله الفائق على الإنسان

يكفى أن الله أوجده بطبيعة ممتازة : له عقل وروح وإرادة .

له العقل الذى استطاع أن يصل إلى الاختراع ، ويصنع الأقمار الصناعية وسفن الفضاء ويصل إلى القمر، ويمشى فى الجوفى مناطق انعدام الوزن... وأعطاه الإرادة الحرة التى يمكنه بها أن يفعل ما يشاء... وأعطاه الذكاء لكى يفهم... ولم يشأ الله أن ينزع الذكاء حتى من الأشرار الذين يعصونه... وفوق المواهب الطبيعية، أعطى الله

لبعض البشر مواهب فائقة للطبيعة وقدرة على صنع المعجزات ، بقوة منه ... ما أعجب ما قيل إن الإنسان خلق على صورة الله ومثاله (تك ١) .

ومنح الله للإنسان الخلود والحياة الأبدية .

منحه أن تكون له حياة دائمة في ملكوته بعد قيامة الجسد من الموت ، ووعده بالنعيم الأبدى في عشرة الله وملائكته ، في أورشليم السماوية «مسكن الله مع الناس» (رؤ ٢١ : ٣) . وقال للأبرار «حيث أكون أنا ، تكونون أنتم أيضاً» (يو ١٣ : ٤) بل وعد الذين يحبونه بأن يتمتعوا بحياة عجيبة في الأبدية ، يكفى أنها قيل عنها «ما لم تره عين ، ولم تسمع به أذن ، ولم يخطر على بال إنسان ، ما أعده الله للذين يحبونه» (١كو ٢ : ٩) .

ومن محبة الله للبشر أنه دعاهم أبناءه :

وفي هذا يقول القديس يوحنا الرسول «انظروا أية محبة أعطانا الآب ، أن ندعى أولاد الله» (١يو ٣ : ١) . وأعطانا أن نصلى له قائلين «أبانا الذى فى السموات» (متى ٦) بل أنه يقول «لا أعود أسميكم عبداً... بل سميتكم أحياء» (يوم ١٥ : ١٥) .

وهكذا جعل الله الرابطة التى تربطنا به هى رابطة الحب .

وقيل إنه «أحب خاصته الذين فى العالم ، أحبهم حتى المنتهى» (يو ١٣ : ١) . وشبه هذا الحب بمحبة الآب لابنيه ، وهكذا قال داود النبى فى المزمور : «كما يتراءف الآب على البنين ، يتراءف الرب على خائفيه» (مز ١٠٣ : ١٣) بل وصل الحب إلى أن لقبنا الله بعروس له ، ووصف حبه لنا بطريقة رمزية فى سفر نشيد الأناشيد .

ووصلت محبة الله للإنسان إلى حد البذل والفداء ...

« هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد ، لكى لا يهلك كل من يؤمن به ، بل تكون له الحياة الأبدية » (يو ٣ : ١٦) وقال السيد المسيح «أنتم أحبائى إن فعلتم

ما أوصيتكم به»، « ليس لأحد حب أعظم من هذا، أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه» (يو ١٥ : ١٤ ، ١٣) وبسبب هذا الحب والبذل والفداء، كان التجسد وانحلاء الذات (في ٢ : ٧) وقيل عنه في فدائه لنا « كلنا كنتم ضللنا، ملنا كل واحد إلى طريقه . والرب وضع عليه إثم جميعنا » (اش ٥٣ : ٦) .

* * *

ومن محبة الله لنا ... أعطانا طريق التوبة لمغفرة الخطايا .

فلم يمسكنا في خطايانا ليعاقبنا عليها، إنما فتح لنا طريقاً للخلاص بالتوبة . وقيل في الكتاب : « إن الله أعطى الأمم أيضاً التوبة للحياة » (أع ١١ : ١٨) بل قال أيضاً : « هكذا يكون فرح في السماء بخاطيء واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين باراً لا يحتاجون إلى توبة ... إن الله يتوبنا فنتوب » (ار ٣١ : ١٨) بل « يقودنا في موكب نصرته » (٢ كو ٢ : ١٤) .

* * *

ومن عطف الله على الإنسان أنه منحه الوحي الإلهي .

وهكذا « كلم الله الآباء بالأنبياء بأنواع وطرق شتى » (عب ١ : ١) ومنح البشرية وصاياه وتكلم مع موسى النبي فمأ لأذن كما تكلم أيضاً مع ابراهيم ... وأعطانا الله الشريعة المكتوبة « تكلم بها أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس » (٢ بط ١ : ٢١) . وهكذا علمنا الرب طرقه ، وفهمنا سبله وأنار بصائرنا حتى لا نضل الطريق .

* * *

بل جعل الله روحه فينا ... وجعلنا مسكناً لروحه القدوس .

وفي هذا يقول القديس بولس الرسول « أما تعلمون أنكم هيكل الله ، وروح الله يسكن فيكم » (١ كو ٣ : ١٦) . وبحلول روح الله على الناس وفي الناس صار روح الله يعمل فيهم ، وصارت لهم ثمار الروح (غل ١٥ : ٢٢ ، ٢٣) وصارت لهم أيضاً مواهب الروح المتعددة (١ كو ١٢) والدخول في شركة الروح القدس (٢ كو ١٣ : ١٤) بل صاروا « شركاء الطبيعة الإلهية » (٢ بط ١ : ٤) أي يشتركون معها في عمل

الخلاص ... شركاء في العمل ، وليس في الجوهر أو الطبيعة طبعاً .

* * *

ومن عطف الله على الإنسان أن منحه البركة والنعمة .

وبركات الله لا تحصى ، أما نعمته فهي موضوع طويل ، قد احدثكم عنه باستفاضة فيما بعد . وبدأت بركة الله للإنسان منذ أن خلقه ، وتتابعَت البركة على الآباء والأبرار ، بل قيل لأبينا ابراهيم « أباركك ... وتكون بركة » (تك ١٢ : ٢) وهكذا سمعنا عن البركة التي منحها الآباء لأبنائهم ...

* * *

ومن عطف الله على الإنسان الحفظ والتدبير وخدمة الملائكة .

جميل ومعز ما قيل عن الملائكة « أليسوا جميعهم أرواحاً خادمة مرسله للخدمة لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص » (عب ١ : ١٤) وعمل الملائكة في انقاذ البشر وفي تبشيرهم لا يدخل تحت حصر... ومن عطف الله علينا أننا « سنصير كملائكة الله في السماء » (متى ٢٢ : ٣٠) وتسمى بعض البشر ملائكة (رؤ ٢ ، ٣) مثل يوحنا المعمدان (مر ١ : ٢) وما أجمل ما يقال عن الملاك الحارس .

* * *

ومن عطف الله أنه معنا في التجارب .

لا يجربنا فوق ما نطيق ، ويعطى مع التجربة الاحتمال ، ويعطى معنا المنفذ ، واكالييل وبركات المهم أن نقابل محبة الله وعطفه ، بمحبة ، ولا يقودنا عطفه إلى اللامبالاة .



أَحْفَظْكَ
حَيْثَمَا تَذْهَبُ
وَأُرِدُّكَ إِلَى هَذِهِ الْأَرْضِ

(تك ٢٨ : ١٥)

أريد أن أقرأ لكم عبارة قالها الرب لأبينا يعقوب أبي الآباء ، ونأخذها مجالاً
لتأملنا... قال له الرب :

« وها أنا معك ، وأحفظك حيثما تذهب . »

« وأردك إلى هذه الأرض . »

« لأنى لا أتركك ، حتى أفعل ما كلمتك به » (تك ٢٨ : ١٥) .

* * *

١- مَنْ ردهم الرب إلى أرضهم ؟

يعقوب أبو الآباء ، كان خارجاً من بيت أبيه ، خائفاً من أخيه عيسو . وكان
سائراً في الطريق ، ولا يعرف ماذا ينتظره . كل ما كان يعرفه ، أنه وضع أمامه نصيحة
أمه رفقة التي قالت له : « هوذا عيسو أخوك مُتَّسِّلٍ من جهتك بأنه يقتلك ... قم اهرب
إلى أخى لابان إلى حاران ، وأقم عنده أياماً قليلة ، حتى يرتد سخط أخيك ، حتى يرتد
غضب أخيك عنك ... » (تك ٢٧ : ٤٣ - ٤٥) .

وفيما هو هارب من أخيه المزمع أن يقتله ، طمأنه الرب بقوله : « ها أنا معك ،
وأحفظك حيثما تذهب ، وأردك إلى هذه الأرض . »

إنه حنو من الحفظ الإلهي .

إنهنا الجنون الطيب ، يرافق إنساناً في هربه ، ليحفظه حيثما يذهب ، ويكون
معه ، ويرده إلى أرضه .

ويظهر حنو الله وحفظه في هذه القصة ، مما يأتى :

كان عمل الله رجاء مقدماً لإنسان ضعيف عاجز :

● فأبونا يعقوب ما كان قادراً أن يحمي نفسه .

● وكان أضعف من عيسو بكثير ، وعدوه كان قادراً على قتله .

● وما كان يعقوب قادراً أن يحفظ نفسه في الطريق ، ولا أن يرجع بقوته إلى تلك

الأرض ... وهنا تدخل الله ، إله الضعفاء ، ليحفظ ويحمي ويرد ...

هناك عمل إلهي في حياة كل إنسان ..

عمل إلهي مصحوب بمواعيد ، تعطى رجاء للنفس المتعبة ...

وسنحاول أن نتبع أمثلة لهذا العمل الإلهي ، وهذا الحفظ الإلهي ، كما يبدو في

قصص الكتاب المقدس .

* * *

● حينما أخذ شعب الله مسبياً إلى بابل وإلى آشور ، وكانوا هناك مستعبدين ،

أسرى حرب ، عاجزين عن حماية أنفسهم ... وقد ملكتهم الكآبة ، وعلقوا قيثاراتهم على

أشجار الصفصاف ، ورددوا قول المزمور: « على أنهار بابل هناك جلسنا ، فبكينا حينما

تذكرنا صهيون » (مز ١٣٦ : ١) .

هنا تدخل الله ، وهمس في أذن الشعب بكلمة رجاء ، قال له فيها : « ها أنا

معك . واحفظك حيثما تذهب ، وأردك إلى هذه الأرض » ... وقد كان :

عادوا من السبي ، وبنوا أسوار أورشليم المهدمة ، وأصلحوا أبوابها المحروقة

بالنار، ورددهم الرب إلى تلك الأرض ..

وقد شرح نحemia في فرح عظيم قصة هذا الرجوع ، وعمل الله معه فيه . وكما نفذ

الله وعده لفرد واحد هو يعقوب ، نفذ أيضاً نفس الوعد لشعب بأكمله ...

* * *

● هناك شخص آخر ، كانت حالته أسوأ .. هو أبونا آدم :

أخطأ أبونا آدم وكسر الوصية . وطرده الرب من الجنة . وقال له بالتعب تأكل من

الأرض كل أيامك . ووضع الرب الكاروبيم بلهيب سيف متقلب لحماية شجرة

الحياة ، حتى لا يأكل منها آدم ولا حواء . وأغلقت أبواب الفردوس أمامهما (تك

٣) ... وماذا بعد ... ؟

وسط كل هذا التعب ، ومع هذه العقوبة وهذا الطرد ، كان نفس الوعد الإلهي مقدماً لأبينا آدم «ها أنا معك ، وأحفظك حيثما تذهب ، وأردك إلى هذه الأرض» ...

ومتى رده الرب إلى الفردوس ؟ ... كان ذلك بعد أكثر من خمسة آلاف سنة ؟ ...
ليكن ..

إن وعد الله قائم ، مهما طالَّت الأيام عليه ..

لقد مرت آلاف السنوات ، انقضت واختفت . ولكن لم تمر أبداً ولم تختفِ عن نظر أحد من الآباء ، تلك العبارة المعزية «ها أنا معك ... وأردك إلى هذه الأرض» .

ورقدوا جميعهم على رجاء ...

يرتل كل منهم عبارة المزمور « وأنا أوْمِن أنى أعائِن خيرات الرب فى أرض الأحياء . انتظر الرب .. » (مز ٢٧ : ١٣) .

إن عقوبة الله لم تستمر ... الله لا يغضب إلى الأبد ، ولا يحقد إلى الدهر (مز ١٠٣ : ٩) . لقد طرد آدم لأنه أخطأ . ولكنه مع الطرد ، أعطاه الوعد بالخلاص ...

وعندما سُمر ربنا يسوع المسيح على الصليب ، وحمل جميع خطايانا ، ودفَع الثمن كاملاً للعدل الإلهي ، ماذا حدث ؟

فتح الرب أبواب الفردوس ، ورد آدم إلى تلك الأرض

ورد معه جميع بنيهِ ، الذين رقدوا على رجاء ، وكذلك اللص اليمين الذى مات على رجاء الوعد الإلهي « اليوم تكون معى فى الفردوس » . ونحن نسبح الرب ونقول له :

صادقة يارب هى مواعيدك . وحقيقى كل رجاء تقدمه .

حينما تقول لأحد « أردك إلى هذه الأرض ، لا بد أن ترده فعلاً .

يعقوب أبو الآباء ، مرت عشرون سنة ، ورددته إلى أرضه . والشعب المسبى ، مرت سبعون سنة ورددته . وأبونا آدم مرت أكثر من ٥٠٠٠ سنة ورددته إلى الفردوس .

مواعيد الله لا بد أن تنفذ . لا يهَم بعد عشرين سنة ، أو سبعين ، أو خمسة

آلاف ...

المهم أن يحقق الله وعده ، في الموعد الذى يحدده وفى محبة وقوة ، يرد تلك النفس التى وعدّها وهنا تظهر قوة العمل الإلهى فى حياة الفرد ، أو الجماعة .
ونلاحظ ملاحظتين فى هذه الأمثلة الثلاثة التى ذكرناها .

هذه الأمثلة الثلاثة تدور حول نفوس كانت عاجزة ، وأيضاً خاطئة ...

لا شك أن ابانا يعقوب كان عاجزاً عن رد نفسه إلى أرضه . وكذلك الشعب فى السبى . وأيضاً آدم كان فى عجز مطلق عن رد نفسه إلى الفردوس ...

وهذه الأمثلة الثلاثة ، تدور حول نفوس قد أخطأت إلى الرب ، وبالتالى ما كانت مستحقة لوعوده ...

آدم معروفة خطيته أو خطاياها العديدة (١) .

ويعقوب خدع أباه الضرير ، وأخذ البركة بالغش والاحتيال ، كما سبق أن أخذ البكورية من أخيه باستغلال اعياء أخيه فى جوعه .

وشعب إسرائيل كان قد وقع فى عبادة الأصنام ، مع خطايا أخرى كثيرة جداً أغضب بها الرب ، حتى دفعه إلى أيدي أعدائه .

ولكن الله لا يعطى مواعيده وحفظه للأبرار فقط ..

حتى الخطاة أيضاً ، لا يسقطهم الرب من رعايته وحفظه ..

ولو كان الخطاة محرومين من عناية الله ، ماخلص أحد ..

ولكن الرب جاء ليطلب ويخلص ما قد هلك ... وقد أعلن أن المرضى هم الذين يحتاجون إلى طبيب ، وليس الأصحاء . وأنه جاء ليدعو الخطاة - وليس الأبرار - إلى التوبة .

• ما أكثر وعود الرب للخطاة ، بردهم إلى تلك الأرض ..

(١) انظر كتابنا آدم وحواء .

وأخرج الثلاثة فتية من أتون النار

كما سبق وأخرج يونان من جوف الحوت ورددهم جميعاً ...

حقاً عجيب هو الرب ! عجيب في محبته ، وفي حفظه ، وعجيب في عمله الإلهي !
عجيب في كل مرة قال فيها لأحد أحبائه : أنا معك ، وأردك إلى هذه الأرض .

* * *

٢- من ردهم إلى أرض الأحياء بالتوبة

• على أن هذه العبارة ، يمكن أن تؤخذ بطريقة روحية أخرى . ولنبدأ
ببطرس الرسول كمثال .

إنه بعد أن أنكر السيد المسيح ، بكى بكاء مرأ ، إذ شعر أنه قد انفصل عن الرب
وعن محبته . وانفصل عن باقي الرسل ، وعن الخدمة وكل العمل الرعوى ...

ولا شك أنه قد رنت في اذنيه عبارة الرب « من أنكرني قدام الناس ، ينكر قدام
ملائكة الله » (لو ١٢ : ٩) .

ولكن الرب عزاه بنفس العبارة ، التي سبق فعزى بها أبانا يعقوب « أنا معك .
وأردك ... » . ولكن كيف رده الرب ، ومتى ؟ حينما ظهر له ، وقال له في حنو « إرع
غنمى . وارع خرافى » (يو ٢١ : ١٥) ... وحينئذ شعر بطرس أن الرب قد رده إلى
جماعة الرسل ..

* * *

• وداود النبي ، حينما زنى وقتل ، وسقط من ذلك العلو العظيم الذى كان
فيه . ولعله كانت في فكره عبارة اوريجانوس [أيها البرج العالى ، كيف سقطت !؟] .

وبكى داود بكاء شديد مستمراً ، وفي كل ليلة كان يبلى فراشه بدموعه ، ولكن
إلهنا الخنون الطيب ، لم يتركه وحيداً في أحزانه ، بل قال له : « أنا معك ، وأردك إلى
تلك الأرض » ..

أردك إلى أرض التوبة والنقاوة ، والمصالحة مع الله .

واستطاع الرب أن يرد داود ، وأن يغسله فيبيض أكثر من الثلج ، وأن يرد له بهجة خلاصه (مز ٥١ : ١٢) .

وبنفس الوضع رد الرب شمشون بعد سقوطه ..

ولعله بنفس الوضع أيضاً رد سليمان بن داود ، الذي قال له عنه : « إن تعوج أودبه ... ولكن رحمتي لا تنزع منه ، كما نزعته من شاول » (٢ صم ٧ : ١٤ ، ١٥) .

لقد مر وقت على دواود ، ظن أنه لا خلاص ..

وهكذا صرخ إلى الرب قائلاً : « يارب لماذا كثر الذين يحزنونني ؟ كثيرون قاموا عليّ . كثيرون يقولون لنفسي : ليس له خلاص بإلهه » (مز ٣) .

ووسط هذه الأفكار التي يزرعها الشياطين ، تبدو وعود الرب مملوءة رجاء « أنا معك ، وأردك إلى هذه الأرض » ...

هذه العبارة هي أقوى سلاح في التوبة والرجوع ..

فمشكلة كثيرين أنهم يظنون بأنهم سيعودون إلى الله ، بقوة إرادتهم ، وبغزبتهم ، وبصدق عزمهم على الرجوع ، دون أن يضعوا العامل الإلهي في قصة عودتهم إلى الله !!
كلا ، صدقوني ... فلو كان الإنسان الخاطيء هو الذي يعيد نفسه إلى الله ، ما عاد أحد ...

إنما الإنسان يصرخ إلى الله : توبني يارب فأتوب ، خلصني فأخلص (أر ١٧ : ١٤) . والسيد المسيح يقول في وضوح « بدوني لا تقدرون أن تعملوا شيئاً » (يو ١٥ : ٥) .

إن النفس الميالة إلى الخطية ، وكذلك الإرادة الضعيفة ، وحروب الشياطين ، والمعطلات الروحية ... كل هذه تصد الإنسان ، وتحاول منعه عن الرجوع إلى الله . ولكن نعمة الله تقف أمام هذه المعطلات . وصوت الرب يقول في حنو للخاطيء : « لا تخف . أنا معك . أحفظك ... وأردك إلى تلك الأرض » .

أنا أردك إلى تلك الأرض ، مهما بعدت أنت وضللت ...

ومهما كان يبدو لك أو لغيرك ، أن الخلاص بعيد عنك أو مستحيل ، أو أن التوبة غير ممكنة ...

أنا معك ، عندما يجاربك الشيطان باليأس ...

حينما يجاربك عدو الخير ، ويقول لك : إن الخطية لم تعد مجرد عادة عندك ، بل صارت طبيعة فيك . ولن تقدر على تركها . لقد صارت ملتصقة بك . أكثر من التصاق جلدك بلحمك . وصارت تسرى فيك ، أكثر من سريان دمك في عروقتك ... !!
لا تخف منه ومن أفكاره ، بل قل له في ثقة :

أنا لن أرجع إلى الله وحدي ، أو بقوتي ...

هو الله الذى سيردنى إليه ، الله الذى قال :

« أنا معك . وأحفظك . وأردك إلى تلك الأرض » .

مادام الله هو الذى يردنى ، إذن فغير المستطاع عند الناس ، هو مستطاع عند الله
(مر ١٠ : ٢٧) .

إن الله يقول لنا في وعوده :

« أعطيتكم قلباً جديداً ، وأجعل روحاً جديدة فى داخلكم . وانزع قلب الحجر من لحمكم ، وأعطيتكم قلب لحم . وأجعل روحى فى داخلكم . وأجعلكم تسلكون فى طرقى وتحفظون احكامى » (حز ٣٦ : ٢٦ ، ٢٧) .

ويقول أيضاً « هلم نتحاجج - يقول الرب - إن كانت خطاياكم كالقرمز ، تبيض كالثلج » (إش ١ : ١٨) .

إنه الرب الذى يعمل العمل كله ، ويردنا إليه ...

ه بأنواع وطرق شتى ، يردنا الرب إلى أرضه :

بالحب والحنان ، يردنا الرب إلى تلك الأرض ...

وإلاً ... فبالشدة والعقوبة يردنا ، أو بالتجارب والضيقات .

أو بالتعليم والإرشاد ... أو بصبره علينا وطول أناته .
بأية الطرق ... بالوسيلة المناسبة لكل نفس على حدة ...
المهم ، أنه يخلص على كل حال قوماً . لأنه يريد أن اجميع يخلصون ، وإلى معرفة
الحق يقبلون (١ تى ٢ : ٤) . وهو لا يسر بموت الخاطيء ، بل بالحري أن يرجع ويحيا
(حز ٣٣ : ١١) .

إنه الرب الراعى الشفوق ، الذى يحافظ على غنمه ..

هو الذى يحنن عليك قلوب الناس ..
وهو الذى من أجلك يربط الشيطان ، فلا يستطيع أن يؤذيك .
هو الذى يحوط حولك من كل ناحية ، فتغنى وتقول :
سبحى الرب يا اورشليم ، سبحى إلهك يا صهيون لأنه قوى مغاليق
أبوابك ، وبارك بنيك فيك الذى جعل تخومك في سلام ، ويملأك من شحم
الحنطة .

الله هو الذى يقوى مغاليق أبوابك ، ويجعل تخومك في سلام .

ضع أمامك باستمرار ، عمل الله في حياتك ، وليس عملك أنت .

ما هو عمل الله في حياتك ؟ ماذا عن يد الله معك ، يمين الله التى صنعت قوة ،
التى تمسك بك وتسدك ...

ماذا يفعل الروح القدس من أجلك ؟ وماذا تعمل قوة الله ونعمة ربنا يسوع المسيح
من أجلك ؟ ...

ماذا تفعل تشفعات الملائكة وصلوات القديسين من أجلك ؟

أما عملك أنت ، فله المكان الثانى ، أو المكان الأخير ..

أما المكان الأول ، والمكانة الأولى ، فلعمل الله ، ولوعد الله القائل : أنا معك .
أحفظك ، وأردك إلى تلك الأرض .

« باليت هذا الوعد الإلهى ، يكون ثابتاً في ذاكرتنا :

نضعه أمامنا باستمرار ، فتعزى ونتقوى ...

كلما تيأس وتظن أنه لا خلاص ، أو أنه لا فائدة من كل جهادك ، تذكر هذه العبارة الإلهية .

كلما يضغط عليك الشيطان ، ويقول أنت في قبضتي !

أو يقول لك : لن أتركك ، لقد وقعت في يدي !
قل له : ما هي قبضتك ؟ وما هي قوتك ؟! أين شوكتك يا موت ، أين غلبتك يا هاوية ؟! (١ كو ١٥ : ٥٥) .

هناك الوعد الإلهي « أنا معك ، وأحفظك حيثما تذهب » .

حسن يارب قولك . ولكن ماذا عن عيسو أخى ؟

عيسو الشديد القاسى الذى يتهددنى ، الذى قال فى غضبه « أقوم واقتل يعقوب أخى » ؟ يرد الرب ويقول :

« لا تخف . أنا معك . أحفظك حيثما تذهب » .

مبارك أنت يارب ، ومبارك هو حنوك . ليكون لى كقولك .

ولتكن قوياً من الداخل ، مهما أطبقت حولك الضيقات ..

مهما تأمر عليك الأشرار ، وماجت حولك المياه الكثيرة ...
مهما تفكرت الشعوب بالباطل ، وتأمر الرؤساء معاً على الرب وعلى مسيحه ،
قائلين : لنقطع اغلاهما ، ولنطرح عنا نيرهما .

لا تلتفت إلى كل هذا ، بل ضع أمامك الوعد الإلهي : أنا معك ، واحفظك حيثما تذهب ...

حقاً ، مادمت أنت يارب معى ، فالدنيا بأسرها كلا شىء قدامى ..

هذه الدنيا كلها ، كقبض الريح ، كالهباء ، بكل ما فيها من مؤامرات الناس الأشرار ، وكل الهياج ، وصوت المياه الكثيرة ...

بما فيها من مكر لابان نحالى ، الذى غير اجرتى عشر مرات (تك ٣١ : ٧) ،
وأعطانى ليثة بدلاً من راحيل (تك ٢٩) ..

مادام وعدك يارب قائماً أمامى ، فلن أخاف البحر الأحمر إن اعترض سبيلى . أنت قادر أن تشقه ، وتمهد لى طريقاً فى داخله ، وتقول لى : امش فيه ، وأنا معك ، أحفظك حيثما تذهب ...

حتى إن وقف أمامى جليات الجبار ، وعيرنى طول النهار ، وهددنى برمح الذى مثل نول النساجين ، وبسيفه وقوته وشماته .. أقول له : أنت تأتينى بسيف ورمح . ولكن الحرب للرب . فأنا لذلك آتيك ومعى الوعد الإلهى القائل : أنا معك ، أحفظك حيثما تذهب ...

لهذا كله ، كان أولاد الله دائماً فرحين ومطمئنين .

عاشوا بقلب مطمئن فى جهادهم الروحى ، وفى كل الحروب الروحية . ولم يتعبوا من حروب الشياطين ، ومن صراعهم مع أجناد الشر ، وقوات هذا العالم المظلم . بل تركوا العالم يضطرب حولهم كما يشاء ، وتمسكوا بالوعد الإلهى المملوء رجاء وعزاء .

وأنت كذلك فى كل حروبك الروحية ، وفى كل ضيقاتك ومشاكلك ، لا تنظر إلى القوى الخارجية التى تحاربك ، ولا تفكر من سيقابلك فى الطريق ويعترضك . بل ركز فكري ومشاعرك فى وعود الله ، التى تشجعك وتسندك وتعزيك .

كم أنت حنون يا إلهى وطيب ...

وكم هى معزية ، وعودك التى ترافق أولادك طوال مسيرتهم فى غربة هذه الحياة ... كم أنت تعمل ، وقوتك الحافظة تعمل ...

مفرحة هى أقوالك ، التى تشجع بها أولادك ...

لقد كثر الأعداء حول داود النبى ، حتى قال ذات مرة : « أكثر من شعر رأسى ، الذين يبغضوننى بلا سبب » (مز ٦٩ : ٤) . ومع ذلك نراه فى كل ضيقاته ، ومع كثرة أعدائه ، ينسى كل هذا ، ويقول للرب : « ناموسك هو درسى » « شهادتك هى تلاوتى » (مز ١١٩) .

آية شهادات يا داود ، تعزيك فى كل ضيقاتك ؟

يجيب : إنها كثيرة جداً ، ولكن تكفينى منها واحدة ، وهى قول الرب : «أنا معك ، واحفظك حيثما تذهب ، وأردك إلى هذه الأرض» .

لست أريد سوى هذه العبارة . ومادمت معى أيها الرب الإله ، ومادامت وعودك فى فكرى ، فلن أخاف شراً ، حتى إن سرت فى وادى ظل الموت ، لأنك أنت معى (مز ٢٣) .

ستجدنى كلى شجاعة ، وإيمان ، ورجاء ، بوعدك الإلهى ...
حقاً يارب انك عجيب . وحسن قولك لمنوح والد شمشون .

« لماذا تسأل عن اسمى ، وهو عجيب » (قضا ١٣ : ١٨) .

إنه منظر عجيب حقاً ، أن نرى أولاد الله سائرين فى طريق الحياة ، ونرى الله ممسكاً بيد كلٍ منهم ، يقول له وهو يشجعه : ها أنا معك ، واحفظك حيثما تذهب ...

إن قوة المسيحية ، فى أنها لا تعتمد على بشرية أو إنسانية أو ذاتية ، إنما تعتمد على الوعد الإلهى : أنا معك ، وأحفظك ..
احفظك من الشياطين ، ومن الناس الأشرار
واحفظك من نفسك ...

احفظك من كل سوء . احفظ نفسك . احفظ دخولك وخروجك (مز ١٢١) .
ويسقط عن يسارك ألوف ، وعن يمينك ربوات . وأما أنت فلا يقتربون إليك (مز ٩١) « لا تخشى من خوف الليل ، ولا من سهم يطير فى النهار ، ولا من أمر يسلك فى الظلمة » (مز ٩١) .

وإن سرت فى وادى ظل الموت ، لا تخاف شراً .

لماذا ؟

لأنى أنا معك - بعد الموت - أحفظك حيثما تذهب - وأردك إلى هذه الأرض ...

هنا ونتأمل :

٣- أرددكم إلى الأرض الجديدة

إننا من عند الله خرجنا . نفخة قدسية خرجنا من فمه الإلهي ، ودخلنا في هذا التراب ، وعشنا فيه زمناً .

وجودنا في التراب ، هو فترة غربته ، يصرخ فيها المرتل قائلاً في المزمور: « ويل لي ، فإن غربتي قد طالت عليّ » (مز ١٢٠) .

وفيما نحن نعيش في هذا التراب ، ونتعب من هذا الجسد الترابي ، نصرخ مع القديس بولس الرسول: « مَنْ يَنْقِذُنِي مِنْ جَسَدِ هَذَا الْمَوْتِ » (رو ٧ : ٢٤) ، حينئذ يقول الله لكل منا « ها أنا معك ، واحفظك حيثما تذهب ، وأردك إلى هذه الأرض » .

وما هي هذه الأرض ؟

يقول القديس يوحنا الرائي : « أبصرت وإذا سماء جديدة وأرضاً جديدة . لأن السماء الأولى والأرض الأولى قد مضتا ، والبحر لا يوجد فيما بعد » (رؤ ٢١ : ١) .

وينظر الإنسان مبهوراً إلى هذه الأرض الجديدة ، التي بارئها وصانعها الرب (عب ١١ : ١٠) ... الأرض المقدسة ، التي لا توجد فيها خطية ولا موت . ولا تحتاج إلى شمس ولا إلى قمر ليضيئا فيها ، لأن مجد الرب ينيرها (رؤ ٢١ : ٢٣) .

ويشير الله إلى هذه الأرض ويقول :

« ها أنا معك ، واحفظك حيثما تذهب ، وأردك إلى هذه الأرض » ليكون إسم الرب مباركاً ، من الآن وإلى الأبد ، آمين .

* * *



دُونَ
أَنْ نَطْلُبَ

”لأنَّ أبابكم السماوي
يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها“

(متى ٢٢: ٦)

القيت هذه المحاضرة في الكاتدرائية الكبرى بالقاهرة مساء الجمعة ١٤/١١/١٩٨٠

١- دون أنت نطلب

لعل أحدكم يقول : كيف يكون لى رجاء ، وأنا لا أصلى ، ولا أطلب من الله نعمة ولا قوة ولا ملكوت الله وبره ؟ هل مثلى يكون له خلاص !؟

نعم ، إن الخلاص للكل . وإن كنت أنت لا تطلب خلاصك ، فإن السيد الرب قد قيل عنه إنه : « جاء لكى يطلب ويخلص ما قد هلك » (لوقا : ١٩ : ١٠) . إنه يسعى لخلاصك أكثر مما تسعى أنت إليه . وهو فى كل مجال يعطينا دون أن نطلب .

إنه شىء مفرح أن يعطينا الله ما نطلب . ولكن عمق الفرح يظهر فى أنه يعطينا دون أن نطلب ...

هنا عمق المحبة الإلهية نحو البشر . بل هنا أبوة الله الحانية ، التى تدرك تماماً ما نحتاجه وما يلزمنا ، فيعطينا من فيض محبته ، وليس لمجرد استجابته لصلواتنا . وسأحاول يا أخوتى أن أثبت لكم هذه الحقيقة بأمثلة عديدة ، حتى يكون لكم عمق الرجاء فى عمل الله لأجلكم .

طبيعة الله الذى يعطى دون أن نطلب ، ظهرت واضحة منذ البدء ، من أول قصة الخلق ، بل فى عملية الخلق ذاتها .

إنه منحنا الوجود دون أن نطلب . ومنح الوجود لكل الكائنات التى خلقها العاقلة والجمادة ، التى لها حياة والتى ليس لها ، طبعاً دون أن نطلب . لقد خلقها كلها من العدم . والعدم ليس له كيان لكى يطلب .

وخلقنا الله على صورته ومثاله دون أن نطلب ...

حتى على فرض المستحيل ، لو كانت لنا الإمكانية أن نطلب الصورة التي نُخلق عليها ، ما كنا نطلب أن نُخلق على صورة الله ومثاله ، كما شاء الله ونحن (تك ١ : ٢٦ ، ٢٧) .

ودون أن نطلب خلق الله لنا هذه الطبيعة وسلطانا عليها .

أعدّ لنا كل شيء قبل أن نكون . بسط لنا السماء سقفاً ، ومهد لنا الأرض كي نمشي عليها . وكما قال القديس غريغوريوس في قداسه : « لم تدعني معوزاً شيئاً من أعمال كرامتك ... من أجلى الجمعت البحر . من أجلى اخضعت طبيعة الخيوان » ... ومن أجلنا خلق الله الأشجار والثمار ، والعشب والبقول ، والأزهار والأطيّار . ومن أجلنا خلق النور ، ووضع قوانين الفلك ... كل ذلك دون أن نطلب ...

ولم يكتف بهذا وإنما قال لنا في حنوه « اثمروا واكثروا واملأوا الأرض ، واخضعوها . وتسلطوا على سمك البحر ، وعلى طير السماء ، وعلى كل حيوان يدب على الأرض » (تك ١ : ٢٨) .

وخلق الله حواء لآدم دون أن يطلب ...

كان يعلم أن آدم لا يجد له معيناً نظيره ، مثلما تجد باقى الكائنات (تك ٢ : ٢٠) . فخلق له حواء . وهكذا أمكن أن تنمو البشرية وتملأ الأرض وتعمرها ، وكل ذلك دون أن نطلب .

إن هذه هي طريقة الله كأب محب وكراع صالح ...

إنه لا ينتظر من أولاده ومن رعيته ومن خليقته أن يطلبوا فيعطيه . بل هو من تلقاء ذاته يعرف ما يحتاجون إليه ، فيعطيه دون أن يطلبوا ...

حقاً ماذا يدركه الطفل الصغير من احتياجاته حتى يطلبها !؟

ولكن أباه يعلم ويفهم ماذا يحتاج إليه ابنه ، فيعطيه دون أن يطلب . هكذا نحن مع أيينا السماوى . إنه أدرى بما نحتاج إليه . وهو كأب حنون يدبر احتياج كل إنسان ، ويدبر احتياجات الأمم والشعوب والجماعات . ولا ينتظر من كل هؤلاء حتى يطلبوا ... وربما لا يطلبون ما يفيدهم وما يفيد غيرهم معهم !!

* * *

إن كان الكاهن العادى يفتقد رعيته ، ويوفى احتياجاتها دون أن تطلب ، فكم بالأولى الله رئيس الكهنة الأعظم وراعى الرعاة؟!

* * *

نعم كم بالأولى الله : « راعى نفوسنا وأسقفها » (١ بط ٢ : ٢٥) الذى قال فى حنوه « أنا أراعى غنمى وأربضها - يقول السيد الرب - وأطلب الضال ، واسترد المطرود ، وأجبر الكسير ، وأعصب الجريح » (حز ٣٤ : ١٥ ، ١٦) .

إنه يرعى شعبه ، لأن هذا هو عمله ، وهذا هو حبه .

ولا ينظر أن ينبه أحد إلى هذا . إنما نحن نطلب ، لأن هذا الطلب يشعرنا بينوتنا لله ، ويعمق الدالة بيننا وبينه ، ويعطينا فرحاً داخلياً حينما تستجاب طلبتنا . ولهذا قال الرب لتلاميذه :

« إلى الآن لم تطلبوا شيئاً باسمى . اطلبوا تأخذوا ليكون فرحكم كاملاً » (يوحنا ١٦ : ٢٤) .

* * *

فرح الاستجابة أوفرح الدالة ، هو الذى يجعلنا نطلب .

ولكن الله يمنحنا كل شيء ، حتى دون أن نطلب .

وفى الكتاب المقدس توجد أمثلة عديدة ، تثبت لنا هذه الحقيقة ، فلنحاول أن نتأمل بعضها حتى يكون لنا من ذلك عزاء ، وحتى يكون لنا رجاء باستمرار فى الله الذى يعمل من أجل سعادتنا كأب وراعٍ وخالق ...

* * *

لوط : أنقذه الله مرتين دون أن يطلب ...

مرة حينما سبى مع أهل سادوم فى حرب أربعة ملوك مع خمسة ملوك التى وردت

في (تك ١٤). ودون أن يطلب لوط، حرك الله قلب إبراهيم عمه فجمع رجاله المدربين، وأنقذه من السبي، كما أنقذ أهله والمدينة كلها.
والمرة الثانية حينما قرر الله حرق سادوم. ودون أن يطلب لوط أرسل الله له ملاكين، فأخذه هو وأسرته بقوة، وكانا يدفعانه إلى الخارج دفعاً وهو متوانٍ (تك ١٩ : ١٦). وذلك لشفقة الرب عليه ورغبته الإلهية في انقاذه.

إن الله لا ينتظر حتى يصرخ الإنسان إليه، وإنما ...

« من أجل شقاء المساكين وتنهيد البائسين، الآن أقوم - يقول الرب - أصنع الخلاص علانية » (مز ١١).

لم يقل « من أجل صلواتهم وطلباتهم »، وإنما من أجل حالتهم التي رآها، من أجل شقائهم وتنهيدهم، يقوم الرب ويصنع الخلاص، سواء طلبوا أو لم يطلبوا...
وهكذا في كل مرة يرى فيها الله مذلة شعبه (خر ٣ : ٧)، يرسل لهم مخلصاً يخلصهم، كما فعل أيام موسى، وأيام جدعون (قض ٦).
وأنقذ إسحق من الذبح، في اللحظة الأخيرة، والسكين فوق رقبتة، دون أن يطلب (تك ٢٢) ...

والله يشبع كل حى من رضاه، دون أن يطلب ...

يرسل المطر والشمس، ويعطى الطعام لكل ذى جسد، حتى للملحدين الذين لا يطلبون منه شيئاً. ويعطى جمالاً لزنابق الحقل. إنه يمنح الكل من أجل جوده هو وخيريته، وليس بسبب استحقاق الناس ولا بسبب طلبهم..

وتذكر في هذا المجال بعض النعم العظيمة التي منحها الله :

٢- نِعْمَ اللَّهُ الْعَظِيمَةُ

خذوا مثلاً لذلك جبل السيدة العذراء بالله الكلمة .

هل تظنون أن العذراء كانت تطلب هذا الأمر؟! محال طبعاً! وما كان حتى
يخطر بذهنها، بل قد تعجبت له وقالت للملاك: «كيف يكون لي هذا؟!...» (لو
١ : ٣٤). ولكن الرب منحها هذه النعمة العظيمة، والقدير صنع بها عظام (لو ١ :
٤٩) دون أن تطلب...

* * *

وعملية الفداء والخلاص على الصليب ، هل طلبها الإنسان؟!

إن أول وعد بالخلاص إنما منحه الله للإنسان دون أن يطلب ، حينما قال إن نسل
المرأة يسحق رأس الحية (تك ٣ : ١٥). والخلاص بهذا الشكل ، ما كان يفكر أو
يحلم به أحد.

هل كان أحد يفكر أن الله يتجسد من أجلنا ، ويخلى ذاته ، ويتألم ويموت على
الصليب؟! إن بطرس الرسول لما سمع هذا الكلام من المسيح «ابتدأ ينتهره قائلاً
حاشاك يارب» (متى ١٦ : ٢٢). إذن هذا الأمر ما كان يطلبه أحد. ولكن الله
منحنا هذا الخلاص دون أن نطلب...

* * *

وتظهر نعمة الله العظيمة في رفع إيليا وأخنوخ إلى السماء .

هل كان أخنوخ يحلم أو يفكر في أن يكون أول إنسان يرفعه الله إلى السماء
ويأخذه إليه؟! (تك ٥ : ٢٤). أو هل طلب إيليا أن يرفعه الله في مركبة نارية إلى
السماء؟! (٢ مل ٢ : ١١). إنها نعم لا تخطر على بال ، ولذلك من المحال أن يطلبها
إنسان. بل يعطيها الله لمن يشاء من أولاده دون أن يطلب...

* * *

ونفس الكلام نقوله أيضاً عن النعيم الأبدى .

هذا الذي يقول عنه الكتاب : « ما لم تره عين ، ولم تسمع به أذن ، ولم يخطر
على بال إنسان ، ما أعده الله للذين يحبونه » (١ كو ٢ : ٩). وطبعاً من المستحيل أن
يطلب أحد ما لم يخطر على بال إنسان .

إننا قد نطلب نعيماً . ولكن هذه الصورة بالذات ، هي شيء فوق ما نطلب ، كل
ما فيه من تفاصيل لم ترها عين ولم تسمع بها أذن ، نناها دون أن نطلب...

أكان بولس الرسول يطلب أن يصعد إلى السماء الثالثة ... !

هذه التي رأى نفسه فيها ، أفى الجسد ليس يعلم ، أم خارج الجسد ليس يعلم ...
أو كان يطلب أن يسمع هناك كلمات لا يُنطق بها ، ولا يسوغ لإنسان أن يتكلم
بها ...؟! من يطلب هذا؟! لا أحد طبعاً .

ولكن الله في كل اعلاناته للبشر ، يعطى دون أن نطلب ...

٢- الرؤى والظهورات

كلها ، قد منحها الله للناس دون أن يطلبوا ...

أكان أبونا يعقوب يطلب أن يرى سلماً واصلة بين السماء والأرض؟!

أو كان يطلب أن يرى ملائكة الله صاعدة ونازلة على هذا السلم ، وصوت الله
يناديه ، ويمنحه الطمأنينة والهدوء (تك ٢٨ : ١٢ - ١٥) ... كل ذلك بعد أن خدع أباه
وأخذ منه البركة بمكر...

أليس أن هذه الرؤيا جاءت ليعقوب دون أن يطلب؟!

* * *

وبنفس الوضع الرؤيا التي رآها القديس يوحنا في بطمس

إنه لم يطلب مطلقاً في منفاه أن يرى المسيح ، « ووجهه كالشمس وهي تضيء في
قوتها ، وعيناه كلهيب نار » بل أن يوحنا لم يحتمل هذا المنظر وسقط على الأرض
كميت (رؤ ١ : ١٢ - ١٧) . وهو لم يطلب أن يرى السماء مفتوحة ، ويرى عرش
الله ، والأربعة والعشرين كاهناً ، والأربعة حيوانات غير المتجسدين ، والملائكة السبعة
أصحاب الأبقار ، وأصحاب الجمادات ، وكل ما هو عتيد أن يكون ...

وكيف يطلب شيئاً من هذا ، وهو لا يعلمه .

ونفس الكلام ينطبق على رؤى دانيال ، ورؤى حزقيال ، وباقي الرؤى ،
وكل الأحلام المقدسة ، وكل النبوءات أيضاً .

كل ذلك كشف إلهى ، أو اعلان إلهى ، لا يعقل أن يطلبه أحد ، لأنه طبعاً لا يعرفه ولا يدور بذهنه ...

أحلام يوسف الصديق عن مستقبل حياته ، ما كانت تدور بذهنه .

ما كان يجول بذهنه - وهو صغير اخوته - أن يأتى إليه اخوته ويسجدوا له ، وكذلك أبواه . لذلك فالحلم الخاص بسجود الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً له ، ما كان يطلبه . ولا الحلم الخاص بسجود حزم اخوته لحزمته (تك ٣٧) . إنها رئاسة يمنحه الله آياها ، ويعلنه بها ، دون أن يطلب .

ونفس الكلام نقوله عن موهبة يوسف فى تفسير الأحلام .

ونقول هذا عن كل موهبة أخرى يمنحها الله للإنسان . مثل موهبة الموسيقى والمزامير التى وهبها الله لداود دون أن يطلب ، ومثل موهبة القوة التى وهبها لشمشون دون أن يطلب . ومثل موهبة الجمال التى وهبها ليوسف (تك ٣٩ : ٦) ولموسى (أع ٧ : ٢٠) ولداود (١ صم ١٦ : ١٥) .

والأحلام المقدسة هى موهبة أخرى من الله لأسباب روحية .

بعضها للمعرفة ، والبعض للإنقاذ ، أو للتغزية ، أو للبشارة ...

حلم ليوسف النجار لينقذه والعائلة من سيف هيرودس (متى ٢ : ١٣) . وحلم آخر للمجوس (متى ٢ : ١٢) . وأحلام لفرعون مصر لكى يستعد للمجاعة المقبلة (تك ٤١ : ١٧ - ٣٦) . وحلم لابيمالك لانقاذ سارة زوجة إبراهيم (تك ٢٠ : ٣) وحلم لسليمان ليمنحه الرب بركة (١ مل ٣ : ٥) . وحلم لنبوخذنصر فسر له دانيال لكى يتضع ويتوب (دا ٤ : ٤ - ٤ - ٢٧) . وأحلام البشارة كثيرة مثل الحلم الذى ظهر ليوسف النجار يبشره بميلاد المسيح .

كل هذه الأحلام منحها الله لأصحابها دون أن يطلبوا ...

وقد قدم الله الرؤى والأحلام كموهبة من روحه القدس ، مثلها مثل النبوة

وحيثما قال في سفر يوثيل النبي : « اسكب روحى على كل بشر، فيتنبأ بنوكم وبناتكم، ويحلم شيونكم أحلاماً، ويرى شبابكم رؤى » (يوء ٢ : ٢٨) وتكررت هذه العبارة في سفر أعمال الرسل (أع ٢ : ١٧) .

النبوءات أيضاً منحها الله للأنبياء دون أن يطلبوا ...

ومنحنا أيضاً هذه النبوءات لفائدتنا دون أن نطلب . وكل الذين أرسلهم الرب كأنبياء، ما كانوا يفكرون أنهم سيصيرون هكذا . وإنما في لحظة لا يعرفها أحد نسمع مثلاً أنه « كانت كلمة الرب إلى أرمياء النبي » (دا ٩ : ٢) أو صارت كلمة الرب لحزقيال (حز ٣ : ١٦) أو « صارت كلمة الرب إلى صفنيا » (صف ١ : ١) ... كل ذلك دون أن يطلب واحد منهم ...

واضح أن الرب يكلم البشر متى يشاء ، دون أن يطلبوا ...

إنه يقدم الحلم أو الرؤيا أو النبوءة ، أو الموهبة ، دون أن نطلب ، وربما في وقت لا نتوقعه على الاطلاق .

وإن كان هذا بصفة عامة ، فبالأكثر مواهب العهد الجديد ..

٤- مَوَاهِبُ الْعَهْدِ الْجَدِيدِ

إنها مواهب ما كان يحلم بها أحد ، وليس فقط أن يطلبها . ولعل في مقدمة كل هذه المواهب :

التبرير ، والتجديد ، والتقديس . وكل ما نناله في المعمودية المقدسة . وكما قال بولس الرسول : « الذين دعاهم ، فهؤلاء بررهم أيضاً . والذين بررهم فهؤلاء مجدهم أيضاً » (رو ٨ : ٣٠) . بل أننا نقف مذهولين أمام قول هذا الرسول :

« لأنكم جميعكم الذين اعتمدتم للمسيح ، قد لبستم المسيح » (غل ٣ :

٢٧) .

وقوله أيضاً إننا أعضاء جسد المسيح « أستم تعلمون أن أجسادكم هي أعضاء جسد المسيح » (١ كو ٦ : ١٥) . مَنْ ذا الذى يطلب ، أو كان يفكر أن يطلب ، أن يكون جسده هو أعضاء المسيح ، أو أن يلبس المسيح؟! ولكن الله يهبنا دون أن نطلب .

بل مَنْ كان يطلب أن يكون جسده هو هيكل الروح القدس!؟

ولكن هوذا الرسول يؤكد لنا هذه الحقيقة (١ كو ٦ : ١٩) ويكررها أيضاً قائلاً : « أما تعلمون أنكم هيكل الله ، وروح الله يسكن فيكم » (١ كو ٣ : ١٦) . إنها حقاً هبة مقدسة معطاة لنا من الله ، دون أن نطلب ...

كذلك أعطانا أن نكون شركاء الروح القدس (١ كو ١٣ : ١٤) وشركاء الطبيعة الإلهية (٢ كو ١ : ٤) في العمل .. كل ذلك دون أن نطلب .

وموهبة أخرى اعطينا إياها أن نصير أولاد الله .

انظروا أية عجة أعطانا الآب ، حتى ندعى أولاد الله « (١ يو ٣ : ١) . بل أن ندعى أيضاً أخوة المسيح . واصبح هو لا يستحي أن يدعونا أخوة (عب ٢ : ١١ ، ١٢) .

وهناك موهبة أخرى عظيمة جداً اعطينا إياها في العهد الجديد وهي :

اعطينا أيضاً سر الأفخارستيا ، دون أن نطلب ...

في ساعة لم يكن يتوقعها التلاميذ ، وهبهم المسيح سر الافخارستيا (متى ٢٦ : ٢٦ - ٢٨) . أعطانا أن نأكل جسده ونشرب دمه (يو ٦ : ٥٤ - ٥٦) لكي نثبت فيه ، وتكون لنا فيه حياة .

أكنا نتخيل أن نطلب طلباً كهذا . ولكنها منحة مجانية فوجئنا بها ، كسائر نعم الله التي يهبها حسب عمق جوده ، دون أن نطلب .

هـ - كرم الله فى عطاياه

اقصى ما كانت تطلب القديسة اليبصابات ، أن يكون لها ابن . ولعلها نسيت هذه الطلبة بعد أن شاخت ، بل أن زوجها زكريا الكاهن استصعب هذا الأمر حينما بشره به الملاك ولم يصدقه (لو ١ : ١٨) كأن أوان طلبه قد فات .

ولكن الرب وهب زكريا واليبصابات ، أعظم من ولدته النساء .

وهبهما هذا الأمر العظيم دون أن يطلباه . وهبهما الملاك الذى يهيبى الطريق قدامه (مر ١ : ٢) . وهبهما إنساناً يكون عظيماً أمام الرب ، ومن بطن أمه يمتلىء من الروح القدس ، ويتقدم أمام الله بروح إيليا وقوته (لو ١ : ١٥ - ١٧) . وهبهما إنساناً قال عنه المسيح إنه « أعظم من نبي » وأنه « لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان » (متى ١١ : ٩ - ١١) .

كل هذا ما كانت تطلبه اليبصابات ، ولا طلبه زكريا ..

* * *

إنه عظم كرم الله الذى يعطى بسخاء فوق ما نطلب ... مهما طلبنا ستكون طلباتنا أقل بكثير من مستوى جود الله وكرمه ، الذى يعطى بسخاء .

كل ما تطلبه العاقر أن يكون لها ولد . ولكن الرب يقول لها فى سفر إشعياء النبى : « اوسعى مكان خيمتك ، ولتبسط شقق مساكنك ... لأنك تمتدين إلى اليمين وإلى اليسار . ويرث نسلك أمماً ، ويعمر مدناً خربة » (إش ٥٤ : ١ - ٣) . كل هذا يعطيه لها دون أن تطلب .

ألعل هذا يشير إلى كنيسة الأمم العاقر التى لم تطلبه !؟

أو ألعل هذا يشير إلى أية أقلية ضئيلة ، أو إلى أية نفس خالية من الفضائل ، عاقراً من جهة عمل الروح فيها ... !

* * *

ومثال آخر تلك الخاطئة المدوسة بدمها في سفر حزقيال .

لعل كل ما كانت تطلبه أن يغسلها الرب فتطهر ، مجرد أن تتوب و يقبل توبتها .
أما الرب الحنون الكريم في عطاياه فيقول لها : « حليتكِ بالخلي ... ووضعت تاج جمال
على رأسكِ ... وجلتِ جداً جداً فصلحتِ لمملكة . وخرج لك اسم في الأمم لجمالكِ ،
لأنه كان كاملاً ببهائى الذى جعلته عليكِ ، يقول السيد الرب » (حز ١٦ : ١١ -
١٤) .

إنها درس في الرجاء . التى لم تنتظر شيئاً ، نالت كل شىء ...

إن الله لا يستج من بنوتنا له ، إن وجد نفوسنا مطروحة على الحقل ، مدوسة
بدمها ، عارية ومكروهة (حز ١٦ : ٥ ، ٦) . بل انه يغسلنا ويطهرنا ، وينزع عنا
عارنا ، فنصير له ، ويطرح علينا بهاءه ... و يضع تاج جمال على رؤوسنا ... حقاً ما أعظم
الرجاء بالرب .

* * *

إن الله لا يعطى بمكيال ، بل يسكب سكباً ، بسخاء ، إنه يفتح لنا كوى
السماء ، ويفيض علينا بركة لا توسع (ملا ٣ : ١٠) حتى نقول له : كفانا كفانا ...
كل هذا دون أن نطلب ...

إنه لا يغسل الخاطيء فقط ، بل يجعله أبيض من الثلج ...

لم يسمح فقط بقبول الابن الضال ، بل اغدق عليه من كرمه وحنوه ، حتى جعل
خاتماً في اصبعه ، والبسوه الحلة الأولى ، وذبحوا له العجل المسمن ، وأقاموا فرحاً برجوعه
(لو ١٥ : ٢٢ ، ٢٣) . أكان هذا الإبن يطلب شيئاً من هذا كله ، وهو الذى فكر أن
يقول لأبيه : « إجعلنى كأحد أجرائك » (لو ١٥ : ١٩) . ولكن أباه أعطاه كل هذا ،
دون أن يطلب ، وفى وقت كان يستحى فيه أن يطلب شيئاً ...

* * *

إن الله لا يعطى من أجل طلباتنا أو استحقاقاتنا ...

إنما يعطى من أجل جوده وكرمه ، ومن أجل احتياجاتنا .

طبعه هكذا : كريم وحنون وطيب . وطبعه هذا يغرس في قلوبنا الرجاء مهما كان حالنا ، ومهما كنا غير مستحقين لشيء .
وقصص الكتاب لا تنتهي في هذا المجال ، إنما نحن نذكر منها هنا مجرد مثال أو بعضاً من مثال ...

* * *

يوسف الصديق كل ما كان يطلبه أن يخرج من السجن ...

ولكن الله جعله الوزير الأول في مصر والثاني في المملكة ...

أكان يوسف يطلب هذا أو يحلم به ، كلا بلا شك . ولكن الله الحنون يعطى دائماً دون أن نطلب .

وقصة يوسف تبعث الرجاء في كل قلب ... هذا الذي ساءت حالته إلى أبعد حد ، وبيع كعبد ، والقي في السجن ، وطالت به المدة في سجنه ، ولاحقته تهمة هو بريء منها ... ومع ذلك أصلح له الله كل أموره ، وأعطاه ما لم يخطر له على بال ...

* * *

ويظهر كرم الله وعطاياه في مواعيده العجيبة .

هذا الذي قال : « ها أنا معكم كل الأيام وإلى انقضاء الدهر » (متى ٢٨ :

٢٠) « حيثما اجتمع إثنان أو ثلاثة باسمي ، فهناك أكون في وسطهم » (متى ١٨ :

٢٠) . إنه يعطينا هذه الوعود المعزية كلها دون أن نطلب .

وتظهر محبة الله لنا أيضاً في دعوته الإلهية .

٦- فني الدعوة الإلهية

كل تلاميذ المسيح أعطاهم شرف الرسولية ، دون أن يطلبوا ..

أكان يطلب هذا بطرس واندراوس وهما مشغولان بالصيد والشباك !؟ أكان

يطلب هذا متى وهو في مكان الجباية !؟ ... وهكذا كل الباقين . والرب قد وضع هذا

الأمر حينما قال لتلاميذه: «لستم أنتم اخترتموني، بل أنا اخترتكم، وأقامتكم لتذهبوا وتأتوا بشمر، و يدوم ثمركم» (يو ١٥ : ١٦).

* * *

وكذلك أيضاً الأنبياء، نالوا جميعهم النبوة، دون أن يطلبوا ..

داود، وهو صبي صغير يرعى الغنيمات القليلات في البرية، أكان يفكر أو يطلب أن يصير مسيح الرب، وأن يختاره الرب دون أخوته الكبار ودون كل الشعب ليصير نبياً له .. أم اختاره الله دون أن يطلب؟!!

وكذلك أرمياء الصغير الذي قال: «لا أعرف أن أتكلم لأنى ولد» أكان يحلم أن يصير نبياً للشعوب، أو كان يطلب هذا. أم أن الله دعاه دون أن يطلب؟!!

وهكذا إبراهيم أبو الآباء، الله هو الذى دعاه (تك ١٢ : ١).

وبالمثل كل الأنبياء، الذين انطبق عليهم قول الكتاب: «الذين سبق فعرفهم، سبق فعينهم... والذين سبق فعينهم، فهؤلاء دعاهم أيضاً» (رو ٨ : ٢٩، ٣٠) هو الله الذى اختار كل هؤلاء دون أن يطلبوا...

* * *

ومثال واضح جداً هو شاول الطرسوسى الذى كان يضطهد الكنيسة .

أكان شاول يفكر أن يصير رسولاً من رسل المسيح؟! مستحيل . بل إنه كان يقاوم المسيحية بافراط . ومع ذلك نقرأ أن السيد المسيح ظهر له فى طريق دمشق، ودعاه دون أن يطلب، واختاره رسولاً للأمم . ونسمع الروح القدس يقول للرسول: «افرزوا لى برنابا وشاول للعمل الذى دعوتهما إليه» (أع ١٣ : ٢).

* * *

وبالمثل، هل كانت راعوث تفكر أن تكون جدة للمسيح؟!!

قطعاً ما كان يخطر لها هذا ببال، وهى امرأة اممية غريبة الجنس! ولكن الله «يدعو الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة» (رو ٤ : ١٧). ألا يعطى هذا الرجاء للناس؟!!

* * *

وأكثر من هذا راحاب . أكانت تطلب أن تصير جدة للمسيح !؟

لعل اقصى ما كانت تطلبه الأمان لنفسها ولأهلها في وقت اقتحام أريحا . أما أن تصير ضمن شعب الله ، فقد كان هذا كثيراً عليها جداً . ولكن أن تصير جدة للمسيح ، فهذا لم تطلبه اطلاقاً ، بل لم يخطر على بالها ، ولم تحلم به . ولكن الله الحنون يعطى دون أن نطلب . يحتاج الأمر أن نؤمن بحبة الله وكرمه واهتمامه بنا

٧- العطاء والإيمان

القديسون لإيمانهم بأن الله يعطى دون أن نطلب ، كانوا ينجلون أن يطلبوا شيئاً . طلبتهم الوحيدة كانت هي الله نفسه ...

ولهذا يقول داود النبي في صلاته : « طلبت وجهك ، ولوجهك يارب الشمس . لا تحجب وجهك عنى » (مز ٢٦) . ويقول في نفس المزمور « واحدة طلبت من الرب وإياها الشمس ، أن أسكن في بيت الرب كل أيام حياتى ، لكى أنظر نعيم الرب واتفرس في هيكله » (مز ٢٦) . أما باقى الأمور فهى بسيطة ، يقضيها لنا الرب دون أن نطلب . أليس هذا هو ما قاله لنا السيد الرب :

« اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره . وهذه كلها تزداد لكم » (متى ٦ : ٣٣) .

لم يقل : « وهذه تطلبوها بعد ذلك » وإنما قال : هذه تزداد لكم . أى يعطيها الله لكم دون أن تطلبوا

ولهذا أيضاً كانت كل طلباتنا في الصلاة الربية ، هى صلوات روحية تتعلق بملكوت الله وبره . والباقى يزداد لنا من الله دون أن نطلب . هو يعلم أننا نحتاج إلى هذه كلها ، فيعطيها لنا من عنده كأب شفق يعرف احتياجات أولاده ، دون أن يجشمهم الاحاح عليه فى طلبها ..

ومع ذلك ، أعطى الله الضعفاء أن يطلبوا ما يشاءون ..

اطلبوا تجدوا (متى ٧ : ٧) فتفرح قلوبكم بالله الذى يعطى ، ويزداد إيمانكم

به . وكلما تعمق إيمانكم في أن الله يعطى كل شيء ، حينئذ سوف لا تطلبون سوى الله وحده ، وملكوته وبره... «أطلبوا تأخذوا ، لكي يكون فرحكم كاملاً» (يو ١٦ : ٢٤) . وكل طلبة يسمعها الله منكم ، يتقبلها بحنو ، كما من أفواه أطفاله الصغار .

عجيب هو إلهنا الخنون ، المعطى ، والمستجيب لطلبة أولاده .

إن الذى يؤمن بالله وعطائه ، ينام فى حضن الله ويستريح ..

ويكون واثقاً ان الله يدبر له كل شيء ... كما كان بطرس نائماً فى السجن مطمئناً إلى عمل الله من أجله . وكان نومه ثقيلاً لدرجة أن الملاك الذى انقذه ، لكزه أولاً وأيقظه (أع ١٢ : ٧) بينما كان هيرودس مزمماً أن يقتله (أع ١٢ : ٤) . ومع ذلك نام ، واثقاً أن الله مستيقظ وساهر على خلاصه . ولهذا أيضاً نسمع داود النبى يقول فى المزمور :

« الرب يرعانى ، فلا يعوزنى شيء » (مز ٢٣ : ١)

ومادام لا يعوزه شيء ، إذن فهو لا يطلب ، لأن الله لم يتركه معوزاً شيئاً يطلبه . ولهذا نقول نحن أيضاً فى القداس الغريغورى : «لم تدعنى معوزاً شيئاً من أعمال كرامتك» .

فإن قال لك الله ماذا تطلب ، أترك تجيب قائلاً :

وهل تركت لى شيئاً أطلبه ؟! إننى لو قضيت عمري كله شاكرأ ، فلن يكفى . لذلك ان رأيتنى يارب احتاج شيئاً ، اعطنى إياه .

إنك اغرقتنى بعطاياك ، وأعطيتنى فوق ما أطلب . ولم تدعنى معوزاً شيئاً ... كما إنك أدرى بما ينقصنى ، إن كان هناك شيء ينقصنى .

عملى الوحيد هو أن أشكر وأن أسبحك على كرمك ، لا أن أطلب ..

ولعل البعض يسأل : ماذا إذن عن الضيقات ؟ نقول :

إن أولاد الله المؤمنين برعايته وعطاياه ، لا ينزعجون ولا يقلقون . ويرون أنه مادام الأمر في يد الله ، فهذا يكفي ...

هذا يكفي لاطمئنانهم وسلامهم . لأنه لا يوجد أحب من الله لهم ، ولا يوجد من هو أكثر عناية منه بهم . ومادام الله قد تسلم كل أمورهم ، لم يعد لهم شيء يقولونه أو طلب يطلبونه .

يكفي للإنسان أن يطلب محبة الله ، لأنه يريد قلوبنا .

هو لا يرغبنا على محبته . يريدنا أن نحبه برضانا . وإن احوجتنا المحبة نطلبها منه . وهو يسكبها في قلوبنا بالروح القدس . إنه لا يرهبنا بلاهوته ، بل يجذبنا بمحبته . ويريدنا أن نبادله حباً بحب ، لذلك يقول : « يا ابني اعطني قلبك » (أم ٢٣) والذى تملك محبة الله على قلبه ، لا يشتهي في العالم شيئاً ليطلبه .

بل هو يقول للرب : « معك لا أريد شيئاً على الأرض » (مز ٢٣ : ٢٥) ويقول مع القديس بولس الرسول : « خسرت كل الأشياء وأنا أحسبها نفاية ، لكي أربح المسيح وأوجد فيه » (في ٣ : ٨ ، ٩) .

هذا هو طلبك الوحيد : الله ومحبته وملكوته وبره ، وكفى

وكل الأمور الأخرى ، يمتلئ قلبك بالرجاء أن الله سيحلها دون أن تطلب . هو يعلم ما تحتاجه ، له المجد في محبته ورعايته .



القَصْصُ التَّاسِعُ



اللّٰهُ

يَعْمَلُ مَعَنَا

هناك أسباب جوهرية ... تجعل عمل الله معنا ضرورة :

منها قول الرب « ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذى يؤدى إلى الحياة... وقليلون هم الذين يجدونه » (متى ٧ : ١٤) ، فإن كان الأمر هكذا ، فإن العدل الإلهى يقتضى أن توجد معونة إلهية ، يمكننا بها أن نجتاز الباب الضيق ... ولهذا يقول الرب :

« بدونى لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً » (يو ١٥ : ٥) :-

مادام الأمر هكذا ، إذن لابد أن يكون الله معنا فى كل عمل نعمله ، وإلا فإننا سنقف عاجزين تماماً فى كل ما تكافح فيه ارادتنا سواء فى الجهاد ضد الخطية ، أو فى خدمتنا للملكوت ، أو فى اكتساب أية فضيلة .

وبخاصة لأننا مطالبون بالقداسة ومطالبون أيضاً بالكمال ...

إذ يقول الكتاب « نظير القدوس الذى دعاكم ، كونوا أنتم أيضاً قديسين فى كل سيرة لأنه مكتوب : كونوا قديسين لأنى أنا قدوس » (١ بط ١ : ١٥ ، ١٦) نحن لسنا مطالبين بالقداسة فقط ، بل أيضاً بالكمال فى هذه القداسة ... وذلك حسب قول الرب « كونوا أنتم كاملين ، كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل » (متى ٥ : ٤٨) ولكى نصل إلى القداسة والكمال ، لابد بالضرورة أن معونة إلهية تحملنا فى الطريق .

* * *

يضاف إلى هذا أن عدونا قوى ... وحيله كثيرة وماكرة .

قال عنه الكتاب « ابليس عدوكم مثل أسد زائر ... فقاوموه راسخين فى الإيمان » (١ بط ٥ : ٨ ، ٩) . ترى بأى إيمان نقاومه ؟ بالإيمان أن الله هو الذى يغلبه فى حربه معنا ... كما قيل فى سفر أيوب ، « الله يغلبه لا الإنسان » (أى ٣٢ : ١٣) . نعم ، إننا لا نستطيع بغير عمل الله معنا أن نغلب تلك الخطية التى قيل عنها إنها « طرحت كثيرين جرحى ، وكل قتلها أقوياء » (أم ٧ : ٢٦) الضرورة إذن تلزم وجود معونة إلهية .

لأنه بالإضافة إلى قوة عدونا طبيعتنا أيضاً ضعيفة .

وهكذا فإن داود النبي في حديثه عن عظم مغفرة الله ، يقول «لأنه يعرف جبلتنا ، يذكر أننا تراب نحن» (مز ١٠٣ : ١٤) . ويقول في كثير من مزاميره « ارحمني يارب فأني ضعيف» (مز ٦ : ٢) . هذا الضعف الذي بسببه تحدث الكتاب عن أخطاء الأنبياء ... فإن كان هؤلاء العظام قد اخطأوا ، فماذا يحدث لنا ، إن لم تسندنا معونة الله ... وهي لا بد تفعل ، حسب قول الرسول :

« حيث كثرت الخطية ، ازدادت النعمة جداً » (رو ٥ : ٢٠) .

نعم تزداد النعمة ، لكي تنقذنا من هذه الخطية ... وهكذا يصرخ داود النبي إلى الرب ويقول « وأنت يارب عرفت سبلي ... في الطريق التي اسلك ، اخفوا لي فخاً ... تأملت عن اليمين وأبصرت ، فلم يكن من يعرفني . ضاع المهرب مني ، وليس من يسأل عن نفسي ... فصرخت إليك يارب وقلت أنت هو رجائي وحظي في أرض الأحياء ... نجني من الذين يضطهدونني لأنهم قد اعتزوا أكثر مني» (مز ١٤١) واحني من قوتهم ، ومن ضعفي .

* * *

ومن ضعف الطبيعة البشرية : الجهل والشهوة وعدم الإرادة .

أحياناً يجهل الإنسان الطريق إلى الله ، يجهل الوسيلة التي بها يخلص . لهذا يقول المرتل في المزمور « علمني يارب طرقك ... فهمني سبلك » (مز ١١٩) « علمني يارب الطريق التي اسلك فيها ... علمني أن أصنع مشيئتك » (مز ١٤٣) ويتغنى بارشاد الرب فيقول : « الرب صالح ومستقيم ... لذلك يرشد الذين يخطئون في الطريق ... يعلم الودعاء طرقه » (مز ٢٥) إذن لا بد أن يتدخل الله ، ليرشد الإنسان في الطريق .

والإنسان قد يعرف ... ومع ذلك إرادته لا تساعد .

إما أنه لا يريد الخير ، بسبب محبته للخطية ، وإما أنه يريد ولا يستطيع ... وهكذا يقول القديس بولس الرسول «إني أعلم أنه ليس ساكناً في - أي في جسدي - شيء صالح . لأن الإرادة حاضرة عندي ، وأما أن أفعل الحسنى فلست أجد ، لأنني لست أفعل الصالح الذي أريده ، بل الشر الذي لست أريده فأياه أفعل .. لست بعد أفعله أنا ، بل الخطية الساكنة فيّ » (رو ٧ : ١٨ - ٢٠) .

لذلك ، فإن الله - بنعمته يعمل في الإنسان .

وهكذا فإن القديس بولس الرسول ينسب كل ما يعمله إلى نعمة الله العاملة فيه ، فيقول « ولكن لا أنا ، بل نعمة الله التي معي » ... « ولكن بنعمة الله أنا ما أنا ... » (١ كور ١٥ : ١٠) . ويرسل إلى تلميذه تيموثاوس ليقول له « فتقو أنت يا ابني بالنعمة » (٢ تي ٢ : ١٠)

ولأهمية النعمة ... فإن الآباء الرسل يبدأون بها رسائلهم .

هكذا في رسائل القديس بولس تتكرر في مقدمتها عبارة « نعمة لكم وسلام » (روم ٧ : ١ ؛ ١ كور ١ : ٣ ؛ ٢ كور ١ : ٣ ؛ غل ١ : ٣ ؛ أف ١ : ٢ ؛ في ١ : ٢) ... والقديس بطرس الرسول يقول في بدء رسالتيه لتكثر لكم النعمة والسلام (١ بط ١ : ١ ؛ ٢ بط ١ : ٢) ، والقديس يوحنا يقول للسبع الكنائس في مقدمة سفر الرؤيا « نعمة لكم وسلام » (رؤ ١ : ٤)

ويعز النعمة التي نلناها في العهد الجديد بقوله « لأن الناموس بموسى أعطى ... وأما النعمة والحق ، فبیسوع المسيح صارا » (يوا ١٧ : ١٧) .

هذه النعمة هي قوة من الله تعمل معنا وفينا .

وهي أيضاً التي كانت تعمل في آباءنا الرسل ، حتى أمكنهم أن يقوموا برسالتهم ، ويشهدوا للرب ، « وبقوة عظيمة كانوا يؤدون الشهادة ... ونعمة عظيمة كانت على جميعهم » (أع ٤ : ٣٣) والقديسة الطاهرة العذراء مريم ، حياها الملاك بعبارة ، « سلام لك أيتها الممتلئة نعمة الرب معك » (لو ١ : ٢٨) .

الله يعمل فينا بنعمته ... وبشركة روحه القدوس .

فالروح القدس يشترك معنا في العمل ، ويعطينا قوة ... ولذلك قال السيد المسيح لتلاميذه القديسين « ولكنكم ستنالون قوة متى حل الروح القدس عليكم ، وحيث تكونون لي شهوداً » (أع ١ : ٨) .

وبهذا كانت « شركة الروح القدس » بركة توهب للمؤمنين إذ يقول القديس

بولس الرسول في آخر رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس «نعمة ربنا يسوع المسيح ،
ومحبة الله ، وشركة الروح القدس مع جميعكم» (٢ كور ١٣ : ١٤) ، وهذه هي البركة
التي تمنحها الكنيسة لأولادها في آخر كل اجتماع .

وبالإضافة إلى شركة الروح القدس ، يقول لنا السيد المسيح :

« ها أنا معكم كل الأيام وإلى انقضاء الدهر » (متى ٢٨ : ٢٠) .

إنه وعد عظيم يمنحنا رجاء أن يكون الرب معنا كل الأيام . ويقول أيضاً
«حيثما اجتمع إثنان أو ثلاثة بإسمى فهناك أكون في وسطهم» (متى ١٨ : ٢٠) .
وقد صور لنا سفر الرؤيا السيد الرب في وسط الكنائس السبع ورعاة هذه الكنائس عن
يمينه (رؤ ١ : ١٣ ؛ ١٦ : ٢٠) . إنه معنا ، يعمل فينا ، ويعمل بنا ، ويعمل معنا ...
هذا عن الإبن ، وماذا عن الأب ؟ يقول السيد الرب :

« أبى يعمل حتى الآن ، وأنا أيضاً أعمل » (يو ٥ : ١٧) .

إن عمل الله لم ينته بالخلق ، حينما استراح الله في اليوم السابع ! فالله يعمل
باستمرار يرى كل شيء ويرقب ، كضابط لكل ... وهو يعمل في رعاية هذه البشرية ،
ويسند ويساعد ويعين ويحفظ ... وقد قيل عن الآباء الرسل « فخرجوا ، وكرزوا في
كل مكان . والرب يعمل معهم ، ويثبت الكلام بالآيات التابعة » (مر ١٦ : ٢٠) .
وقال داود النبي عن عمل الرب « ما أعظم أعمالك يارب ... كلها بحكمة صنعت »
(مز ١٠٤ : ٢٤) .

الثالث القدوس إذن يعمل معنا ، وتعمل معنا ملائكته .

قال الرسول عن الملائكة ، أليسوا جميعاً أرواحاً خادمة مرسله للخدمة لأجل
العتيدين أن يرثوا الخلاص » (عب ١ : ١٤) ملاك من السارافيم طار بسرعة وأخذ جرة
من على المذبح ومسح بها شفتي اشعيا النبي لما سمعه يقول « ويل لي قد هلكت ،
لأنى إنسان نجس الشفتين » (اش ٦ : ٥ - ٧) وملاك آخر وقف يدافع عن يهوشع
الكاهن لما رأى الشيطان وقال له « لينتهرك الرب يا شيطان لينتهرك الرب » (زك ٣ : ٢) .

ويعوزنى الوقت إن تحدثت عن عمل الملائكة من أجل البشر بأمر من الرب : مثل قول دانيال النبي « إلهي ارسل ملاكك فسد أفواه الأسود » (د : ٦١ : ٢٢) ، ومثل انقاذ الملك لبطرس من السجن (أع : ١٢) ومثل قول الكتاب « ملاك الرب حال حول خائفيه وينجيهم » (مز : ٣٤ : ٧) . ومثل قول الكتاب عن عمل الله من أجلنا في ضيقاتنا « في كل ضيقهم تضايق وملاك حضرته خلصهم » (أش : ٦٣ : ٩) .

* * *

الله يعمل لأجلنا في كل ضيقاتنا وتجاربنا ...

إنه يقول لكل منا « لا أهملك ولا أتركك ، تشدد وتشجع . لا ترهب ولا ترتعب لأن الرب إلهك معك حيثما تذهب » (يش : ١ : ٥ ، ٩) . وقال لارميا النبي « لا تخف من وجوههم لأنى أنا معك لانقذك » (ار : ٨ : ١) . وقال للقديس بولس الرسول « لا تخف ، بل تكلم ولا تسكت ، لأنى أنا معك . ولا يقع بك أحد ليؤذيك » (أع : ١٨ : ٩ ، ١٠) .

* * *

حتى في الكلام ، الله يكون معنا ، ليتكلم على ألسنتنا .

إنه يقول لنا « لا تهتموا كيف أو بما تتكلمون ، لأنكم تعطون في تلك الساعة ما تتكلمون به لأن لستم أنتم المتكلمين ، بل روح أبيكم الذى يتكلم فيكم » (متى : ١٠ : ١٩ ، ٢٠) . وبولس الرسول يطلب صلاة أهل أفسس لكي يعطى له كلام عند افتتاح فمه (أف : ٦ : ١٩) ، وداود النبي يقول « افتح يارب شفتى ، لكي يخبر فمى بتسبحتك » (مز : ٥٠) وارميا النبي قال له الرب « ها قد جعلت كلامى في فمك » (ار : ١ : ٩) .

* * *

ومن جهة التوبة ، الله هو الذى يعمل فينا للتوب ، لذلك يقول الكتاب :

« توبنى فأتوب ، لأنك أنت الرب إلهي » (ار : ٢١ : ١٨) .

روح الله هو الذى ييكتنا على خطية (يو : ١٦ : ٨) وهو الذى يرشدنا إلى طريق البر . والمرنم يقول عن عمل الرب في التوبة « انضح على بزوفاك ، فاطهر ، واغسلنى

فأبيض أكثر من الثلج» (مز ٥٠). ونحن نصلى فى قداساتنا ونقول «طهر نفوسنا وأجسادنا وأرواحنا» والله هو الذى منحنا فى المعمودية غسيل الميلاد الثانى (تى ٣ : ٥). ووعدنا فى سفر اشعيا بهذا التطهير (اش ١ : ١٨)، وكذلك فى سفر حزقيال (حز ٣٦ : ٢٥) ومن العبارات التى تستحق شيئاً من التأمل قول المرتل فى المزمور:

« قلباً نقياً اخلق فىّ يا الله وروحاً مستقيماً جدده فى أحشائى » (مز ٥٠).

إذن فوجود هذا القلب النقى هو من عمل الله، يخلقه خلقاً من لا شيء، ويجدد الروح... ويقول الرب فى سفر حزقيال «وأعطيكم قلباً جديداً، واجعل روحاً جديداً فى داخلكم... واجعل روحى فى داخلكم... واجعلكم تسلكون فى فرائضى. وتحفظون احكامى وتعملون بها» (حز ٣٦ : ٢٦، ٢٧) واضح أنه عمل الرب فىنا.

* * *

« إنه الله الذى يريد أن الجميع يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون »
(١تى ٢ : ٤).

وهو لا يريد فقط، وإنما يريد ويعمل على خلاصنا. هو الذى دبر طريقة الفداء والكفارة... وهو الذى اخلى ذاته وتجسد... هو الذى أحب «أحب العالم حتى بذل ابنه الوحيد، لكى لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية» (يو ٣ : ١٤).

* * *

هو الذى أعطى الرسل المصالحة... ليصالحونا معه.

وفى ذلك يقول القديس بولس الرسول «... الله الذى صالحنا لنفسه بيسوع المسيح وأعطانا خدمة المصالحة... إذن نسعى كسفراء عن المسيح، كأن الله يعظ بنا... نطلب عن المسيح: تصالحوا مع الله» (٢كو ٥ : ١٨، ١٩).

* * *

هو الذى قال : أنا واقف على الباب وأقرع (رؤ ٣ : ٢٠).

إنه يقرع على باب كل نفس ويبحث عن خلاص على كل نفس، كما يبحث عن

الخروف الضال والدرهم المفقود (لوقا ١٥) وهو من أجل هذا الخلاص أرسل الأنبياء والرسل، والرعاة والمعلمين، وأرسل لنا كلامه بالوحي الإلهي.

الله أيضاً يعمل لأجلنا بالحفظ الإلهي ...

وبهذا يتغنى المرتل في المزمور «لولا أن الرب كان معنا حين قام الناس علينا، لابتلعونا ونحن أحياء... مبارك الرب الذي لم يسلمنا لأسنانهم... نجت أنفسنا مثل العصفور من الصيادين» (مز ١٢٣)، وداود النبي يقول لجليات «الحرب للرب، وهو يدفعكم ليدنا» (١ صم ١٧: ٤٧). وموسى النبي قال للشعب «قفوا وانظروا خلاص الرب... الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون» (خر ١٤: ١٣، ١٤).

إن الشيطان يريد أن يوقعنا في اليأس... بأن ينسينا عمل الله من أجلنا. ومن السهل أن نرد عليه. إن قال لنا أن طريق الرب صعبة نقول له يكفي أن الله معنا في الطريق... وهو يجعل الصعب سهلاً... وإن قال لواحد منا أن نفسك لا تريد التوبة، نقول له: يكفي أن الله يريدنا لنا وهو لا شك سيقودنا إليها... وإن أخافنا من الأعداء الكثيرين نقول له: إن الذين معنا أكثر من الذين علينا.

* * *

إن الله يعمل لأجلنا. ولكن يجب علينا الاستجابة له... والشركة معه. وفي هذا يقول الرسول، «إن سمعتم صوته، فلا تقسوا قلوبكم» (عب ٣: ٨) الله يعمل... ولكن ينبغي أن نشترك معه في العمل... هو يرسل روحه القدوس لأجل تقويتنا، وإرشادنا. ولكن ينبغي لنا أن ندخل في شركة الروح القدس. وبهذا يكون الخلاص هو نتيجة عمل الله فينا... ومعه قبولنا لهذا العمل... واشتراكنا مع الروح في وسائل النعمة. وكل ذلك يبعث الرجاء في النفس. ولكن...

لعل إنساناً يقول إنني طلبت من الله كثيراً وهو لم يستجب! ومازلت في ضيقة، والله لم يتدخل! فأين الرجاء إذن؟ لمثل هذا الإنسان، قال المرتل في المزمور:

«انتظر الرب. تقو وليتشدد قلبك، وانتظر الرب» (مز ٢٧).

* * *



انتظر الرب

عن محاضرتين ألقيتا في الكاتدرائية الكبرى بدير الأنبا رويس بالقاهرة .

أحدهما مساء الجمعة ١٠/١٢/١٩٧٦م / والثانية مساء الجمعة ٢/٥/١٩٨٠م

لا شك أن الله يعمل ، ويعمل في هدوء ، من أجل كل مخلوقاته ، كراعٍ صالح للجميع ، يريد الخير للجميع .

غير أن البعض إذا تعبوا ، أو إذا ظنوا أن الله قد تأخر عليهم ، يخيل إليهم أنه لا يعمل !!

يظنون هذا خلال مشاكلهم ، بينما يكون الله في عمق العمل من أجلهم ، وهم لا يعملون . أو أن هؤلاء يعوزهم أن ينتظروا ليروا عمل الرب ، أو ليروا نتيجة عمله على وجه أصح ... ليروا بالعيان ما كان يجب أن يصدقوه بالإيمان ...
« انتظر الرب . تقوّ وليتشدد قلبك ، وانتظر الرب » (مز ٢٦ ، ٢٧) .

نوعيّة الانتظار

الذي ينتظر في رجاء ، إنما ينتظر الرب بقلب مملوء بالإيمان وبالثقة . في غير شك ، وبغير قلق ولا اضطراب ولا تضايق . ينتظر وهو مؤمن أن الرب لا بد سيتدخل ، ولا بد سيعمل ، وأن الأمور لا بد تنتهي إلى خير ، حسب قول الكتاب :

« كل الأشياء تعمل معاً للخير ، للذين يحبون الله » (روم ٨ : ٢٨) .

وهكذا يصف لنا الكتاب الرجاء العظيم لمنتظري الرب فيقول « وأما منتظرو الرب فيجدون قوة . يرفعون أجنحة كالنسور . يركضون ولا يتعبون ويمشون ولا يعيون » (اش ٤٠ : ٣١) ... القوة التي هزتها الضيقة ، تتجدد بالرجاء ، بانتظار الرب . كما قيل في المزمور « يجدد مثل النسر شبابك . إذن ينبغي أن الإنسان ينتظر الله ، بقلب قوى متشدد ، بإيمان واثق .

وائق أن الله لا بد سيعمل . وسيظهر عمله واضحاً وقوياً . والله يعمل في الوقت المناسب ، وبالطريقة المناسبة ، النافعة .

ليس من اللائق أن نفرض على الله وقتاً معيناً أو اسلوباً خاصاً . فقد قال الرب « ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التي جعلها الآب في سلطانه وحده » (أع ١ : ٧) . يكفي أن تترك مشكلتك في يد الله وتنساها هناك ، وأنت واثق أن الله سيحلها ... أما متى ؟ فهذا ليس لك أن تفحصه . يكفي أنها ستحل بيد الله ، في الحين الحسن . وما عليك إلا أن تنتظر الرب .

* * *

ثلاثة أمور يركز عليها انتظارك

١ - رجاؤك في انتظار الله يركز على إيمانك بمحبة الله لك .

الله الذي يحبك ، أكثر مما تحب أنت نفسك . والذي يعمل من أجلك الخير ، أكثر مما تستطيع أن تعمل أنت من أجل نفسك . الله الذي يريد أن الجميع يخلصون ، وإلى معرفة الحق يقبلون » (١تى ٢ : ٤) . الله الذي نقشك على كفه ، وحفظك في يمينه الحصينة ، والذي يقول لك « لا أهلك ولا أتركك » (يش ١ : ٥) .

* * *

ب - رجاؤك أيضاً في انتظار الرب ، يركز على إيمانك بحكمته :

حكيمته غير المحدودة ، التي هي فوق مستوى تفكيرك ، وفوق مستوى تفكير غيرك . الحكمة التي تعرف ما هو الخير لأنها ترى كل شيء ، وتبصر ما لا تبصره أنت . هذه الحكمة التي أدركها أيوب الصديق أخيراً ، فقال « قد نطقتم بما لم أفهم . بعجائب فوقى لم أعرفها » (أى ٤٢ : ٣) .

تأكد إذن أن الله يدبر أمورك بحكمة ، سواء فهمتها أم لم تفهمها ... سلم قلبك لحكمته وانتظر ...

* * *

ج - رجاؤك أيضاً في انتظار الرب ، يرتكز على إيمانك بمواعيده :

مواعيده التي قال فيها « ها أنا معكم كل الأيام وإلى انقضاء الدهر » (متى ٢٨ : ٢٠) . إن نسيت الأم رضيعها أنا لا أنساكم (اش ٤٩ : ١٥) « نقشتكم على كفى » (اش ٤٩ : ١٦) . « تشدد وتشجع لا ترهب ولا ترتعب . لأن الرب إلهك معك حيثما تذهب » (يش ١ : ٩) « لا يقف إنسان في وجهك كل أيام حياتك » (يش ١ : ٥) « أنا معك ولا يقع بك أحد ليؤذيك » (اع ١٨ : ١٠) .

لأتلجأ إلى الطرق البشرية

الذي ييأس من انتظار الرب ، قد يلجأ إلى الطرق البشرية . يعتمد على الذكاء أو المكر والدهاء . كما فعلت رفقة ، عندما ظنت أن الوقت قد فلت ، وسوف تضيع البركة التي وعد بها ليعقوب (تك ٢٥ : ٢٣) ، فلجأت إلى طريق بشري ، خدع فيه يعقوب أباه القديس اسحق (تك ٢٧) .

وأيضاً أبونا ابراهيم لما يئس من انتظار الرب ، لجأ إلى الطرق البشرية ، فأخذ هاجر لتلد له ثم عاد ابراهيم وأخذ قطورة (تك ٢٥ : ١) . وكانت طرقاً مرفوضة من الرب .

* * *

والبعض حينما ييأس من انتظار الرب ، قد يلجأ إلى السحرة والعرافين ، وإلى طرق بشرية كاللجوء إلى استشارة الموتى !!

الأمر الذي اعتبره الرب من رجس الأمم . وقال في ذلك « ... لا تتعلم أن تفعل مثل رجس تلك الأمم . لا يوجد فيك من يميز إبنه أو إبنته في النار ، ولا من يعرف عرافة ، ولا عائف ، ولا متفائل ، ولا ساحر . ولا من يرقى رقية ، ولا من يسأل جاناً ولا تابعة ، ولا من يستشير الموتى . لأن كل من يفعل ذلك مكروه عند الرب » (تث ١٨ : ٩ - ١٢) كلها طرق بشرية مرفوضة من الله . وبعضها طرق شيطانية .

ومثل ذلك من يلجأ إلى التنويم المغناطيسي ، وما يعرف بالسلة . ومن يؤمن

بالعمل وإبطاله ، ومن يلجأ إلى من يقرأ الفنجان ، ومن يقرأ الكف ، ومن «يضرب الرمل» ومن «يعرف البخت» ، وأمثال هذه الطرق ...

إن الله يريدك أن تكون تحت قيادته : تأخذ معرفتك منه . وكثيراً ما تغنى داود النبي بأن خلاصه من عند الرب أو أن الرب نفسه قد صار له خلاصاً . والعجيب أن بعض الذين يلجأون إلى هذه الأمور يرمحون ضمائرهم الثائرة عليهم أو ضمائر الناس الساخطة عليهم ، بأن هذه الأمور تدخل تحت نطاق العلم ، وأن الكنيسة لا يجوز لها أن تقاوم العلم !!

في الكتاب المقدس يقول الرب إن استشارة الموتى هي من رجس الأمم ، وأنها مكروهة عند الرب ، فيقول البعض إنها علم ، ولا يجوز للكنيسة أن تقف ضد العلم !!

حتى إن كان علماً ، فهو رجس ومكروه عند الرب .

والعجيب أن السحر نفسه ، الذي هاجمه الكتاب . وقال الرب « لا تدع ساحرة تعيش » (خر ٢٢ : ١٨) . وقال إن خارج الملكوت «... السحرة وعبدة الأوثان... نصيبهم في البحيرة المتقدة بالنار والكبريت» (رؤ ٢١ : ٨) ... السحر يرى البعض أن هناك نوعاً مقبولاً خنه يسمونه «السحر الأبيض» ولم أقرأ في الكتاب اطلاقاً عبارة «السحر الأبيض» !!

أما أنت فلا تلجأ إلى أمثال هذه الطرق ، إنما الجأ إلى الله وانتظره . ومهما تأخر لا تلجأ إلى السحر واشباهه .

إنها تعبير إما عن فشل ويأس أو هي دليل عملي على اللجوء إلى غير الله . أو هي ضيق في القلب لا يستطيع أن ينتظر الرب . أو هي استهانة بأمر الله الصريح الوارد في (تث ١٨) . لقد ضرب الرب شاوول الملك وأماته لأنه لجأ إلى مثل هذا الطريق... (١ صم ٢٨) . أما أنت فاستمع لأمر الرب الصريح . ولا تلجأ إلى طرق خباثنة كهذه مهما ظننت أنه قد تأخر عليك .

ولكن لعل إنساناً يسأل : إلى متى أنتظر الرب ؟ ...

إلى متى تنتظر؟

يقول المرتل في المزمور « صبرت نفسى للرب . صبرت نفسى لنا موسك انتظرت نفسى الرب من محرس الصبح حتى الليل » (مز ١٢٩) و يضيف بعدها « لأن الرحمة من عند الرب ، وعظيم هو خلاصه » ... وربما عبارة « من محرس الصبح حتى الليل » - في معناها الرمزي - تعنى العمر كله ، أو تعنى الوقت كله .. أو عبارة « حتى الليل » قد تعنى : حتى الظلمة ، حتى عمق اشتداد المشكلة ...

نتنظر الرب ، ونحن متأكدون تماماً أنه لا بد سيجىء و يصنع خلاصاً . أما متى يجىء ؟ أصباحاً ، أم ظهراً ، أم في نصف الليل ، أم في الهزيع الرابع ؟ لسنا ندرى ...

* * *

لا نعرف متى يجىء . ولكن ما يسعدنا حقاً ، أنه لا بد سيجىء ..

الوقت أو الميعاد ، نتركه لحكمته الإلهية . ولكن نفرح بانتظار مجيئه ، حسب وعده الصادق « لا أترككم يتامى . إنى آتى إليكم » (يو ١٤ : ١٨) . « سأراكم أيضاً فتفرح قلوبكم . ولا ينزع أحد فرحكم منكم » (يو ١٦ : ٢٢) . إن الصليب قد يحمل المآ . والقيامة معها فرح الرجاء ...

وكل صليب لا بد بعده قيامة . والوعد بالقيامة يحمل الرجاء ...

لذلك كن واثقاً ، ولا تيأس . وانتظر الرب في عمق السلام الداخلى . وكلما احاطت بك ضيقة ، قل : إننى اسمع صوت حيبى « هوذا آت ، ظافراً على الجبال ، قافراً على التلال » (نش ٢ : ٨) .

* * *

وإن صادفتك مشكلة ، لا تجعلها تتعبك كما يحدث لفاقدى الرجاء . بل قل في ثقة : إن الله لا بد سيحلها . وإن لم تحل في هذه الأيام ، ستحل في الأسابيع المقبلة . وإن لم تحل في هذه الأسابيع ، ستحل في الشهور المقبلة ، أو في السنوات المقبلة . انها

لا بد ستحل ، مهما مرّ الوقت عليها . أنا واثق يارب في تدخلك . واثق في حكمتك
وفي عملك ، وأنتك لن تتخلى .. لذلك مهما مر الوقت ، نحن لا نحزن ، كما قال
الرسول :

« لا تحزنوا كالباقين الذين لا رجاء لهم » (١ تس ٤ : ١٣) .

إن ثقتنا بعمل الله ، لا تسمح أبداً للحزن أن يدخل إلى قلوبنا . فلنشق به إذن .
عجيب اننا نشق أحياناً بالطرق البشرية ، وبالوسائط العالمية ، ونشق بالآخرين ، ونشق
بأنفسنا ، بذكائنا وفهمنا وقدراتنا .. أما الله ، فكثيراً ما تهتز ثقتنا ونحن ننتظره !!
فلماذا؟ أعله (التأخير) في الاستجابة هو الذى يجعلنا نشك أو نحزن .

إذن فلنبحث موضوع التأخير هذا لفهمه جيداً ... وكمقدمة له نقول : إن الله
يعمل ، مهما بدا لنا أنه قد تأخر علينا ...

هَمَا بَدَا أَنَّهُ تَأَخَّرَ

الله لا يتأخر مطلقاً . عبارة « تأخر » هنا لها معنى نسبي ، بالنسبة إليك ! وكذلك
عبارة « لا تبطئ » (مز ٦٩) . أى لا تجعلنى أشعر أنك قد أبطأت علتى وتأخرت !

إن الله يعمل بطريقة هادئة متزنة ، قد نحسبها نحن بطئاً .

كل أعمال الله تكون في وقتها المناسب . لا سرعة فيها ولا تأخير . وتوقيتها محسوب
بحكمة إلهية عجيبة ، بكل دقة .

لقد وعد الله آدم وحواء بالخلاص ... ومرت آلاف السنوات ...

قال لهما إن نسل المرأة سوف يسحق رأس الحية . ومرت آلاف السنوات ، والحية
لا تزال رافعة رأسها في شموخ ! وبدا أن نسل المرأة في انهيار مستمر ... حتى أن الله
اغرق العالم بالطوفان ، وأحرق سادوم بالنار ، وأمر الأرض أن تفتح فاهها لتبتلع قورح

ودثان وايرام... وبقى وعد الله قائماً...

هلك هذا النسل . ولو!! لنا رجاء في نسل آتٍ للخلاص ..

كان الرجاء معلقاً في أولاد نوح . أفسد أغلبهم؟! يبقى الرجاء في أولاد إبراهيم .
أفسد أغلبهم؟ يبقى الرجاء في أولاد يعقوب... لا بد سيحقق الله وعده بالخلاص..
ومهما انتظر سمعان الشيخ طويلاً، لا بد سيأتي عليه الوقت الذي يقول فيه - وهو يحمل
المسيح - « الآن يارب تطلق عبدك بسلام، لأن عيني قد أبصرتا خلاصك » (لو ٢ :
٢٩ ، ٣٠) . حتى المرأة السامرية - على الرغم من كثرة خطاياها - لم يفارقها مطلقاً
هذا الرجاء في مجيء المسيح، لذلك قالت: « أنا أعلم أن مسيا، الذي يقال له
المسيح، يأتي... » (يو ٤ : ٢٥) .

وكثيرون رقدوا قبل أن يبصروا الخلاص . ولكن رقدوا على رجاء ..

وفي ذلك يقول معلمنا القديس بولس الرسول : « في الإيمان مات هؤلاء اجمعون ،
وهم لم ينالوا المواعيد . بل من بعيد نظروها ، وحيوها وأقروا بأنهم غرباء ونزلاء على
الأرض » (عب ١١ : ١٣) . هؤلاء رتلوا مع المزمور « لأنك لن تترك نفسى في
الجحيم ، ولن تدع قدوسك يرى فساداً » (مز ١٦ : ١٠) . وفي كل ذلك سنسأل سؤالاً
هاماً وهو:

* * *

هل حقاً تأخر الله في تنفيذ وعده بخلاص العالم ؟

كلا ، إنه لم يتأخر الوقت على الرغم من مرور آلاف السنين . بل انه كان يعد
البشرية لاستقبال هذا الخلاص... يعدهم بالنبوات وبالرموز وبالتوبة وبالإيمان . كم
من الذبائح والمحرقات قدموها، حتى صارت عقيدة الكفارة والفداء راسخة في
أذهانهم، وصارت المغفرة بالدم أمراً سهلاً مقبولاً... وانتظر الرب حتى اصبح الإيمان
ممكناً، حتى وسط الأمم . وانتظر الرب حتى يوجد المعمدان الذي يعد الطريق قدامه ،
وحتى توجد العذراء الطاهرة التي تكون اناء للتجسد، والتي تقدر على احتمال ذلك
المجد العظيم .

إذن لم تكن مرحلة تأخير ، إنما مرحلة إعداد تقوى الرجاء ..

ونفذ الله وعده الذى لم ينسه مطلقاً خلال آلاف السنين ، بل كان يهد له ...
وأخيراً استطاع نسل المرأة أن يسحق رأس الحية (تك ٣ : ١٥) . وتم فعلاً ما قاله
لايينا إبراهيم : « بنسلك تتبارك جميع قبائل الأرض » (تك ٢٢ : ١٨ ؛ أع ٣ : ٢٥) .

لقد خلصهم « فى ملء الزمان » (غل ٤ : ٤)

* * *

مفهومنا الخاص للتأخير

نحن نقول انتظر الرب . فهل ننتظر الرب حتى يبدأ العمل ، واثقاً أنه سوف
يعمل ؟ كلا . فهذه تعبيرات مقدمة للمستوى البشرى فى الفهم . فما الحقيقة إذن ؟

انتظر الرب واثقاً ، ليس أنه سيعمل ، بل واثقاً أنه يعمل فعلاً ، وربما قبل أن
نطلب منه نحن .

ربما كنيسة محتاجة إلى كاهن يرعاها ، وتطلب من الرب هذا ، ويبدو أن الرب قد
تأخر عليها عامين أو ثلاثة ، حتى أرسل لها الكاهن المطلوب ... ! بينما تكون الحقيقة
أن الله كان يعد لها هذا الكاهن منذ ثلاثين أو أربعين عاماً مضت ، قبل أن تطلب ...
يعده بروحيات معينة ، ويعلم ومعرفة وحكمة وتدابير ، ويعده ربما بتجارب
وضيقات ، وبخبرات روحية ، تجعله الشخص النافع والمناسب لهذه الكنيسة ... ونحن
الذين لانرى ولا نعرف أعدادات الله ، ونظنه قد تأخر !!

* * *

أسباب وحكمة ما نظنه تأخيراً

١ - ربما يكون مجالاً لتعميق صلواتك وروحياتك .

هذا (التأخير) يجعلنا نصلى ، ونتضرع ونداوم اللجاجة بقوة ومن عمق القلب ،

ومن عمق الاحتياج ، وربما نضيف إلى الصلاة صوماً ، وتذلاً أمام الله ، ونذراً . مثال ذلك حنة أم صموئيل : لما كانت عاقراً ، وقد تأخر عليها الانجاب وكانت ضررتها تغيظها ، يقول الكتاب إنها «صلت إلى الرب ، وبكت بكاءً ، ونذرت نذراً» (اصم ١ : ٩ - ١٢) وتعهدت بأن الابن الذي يعطيها الرب إياه يكون نذيراً للرب يخدمه كل أيام حياته . وهكذا استفادت من هذا (التأخير) . أو قل أن الرب وجد أن الوقت المناسب لمنحها نسلأ ، هو الوقت الذي تصل فيه إلى هذه الحالة الروحية ، بدون تأخير .

* * *

٢ - ربما يكون السبب أن الرب يعد طريقاً أفضل :

لو استجاب الرب ليوسف الصديق منذ أول إلقائه في السجن ، ربما كان مصيره أن يخرج ليعمل فوطيفار أو سيداً آخر ، أو في أية وظيفة مماثلة ولكن (التأخير) لم يكن تأخيراً ، وإنما انتظاراً للحلم الذي يحلمه فرعون ، ويفشل في معرفة تفسيره ، ويكون رئيس سقاته معه ، فيخبره بيوسف ، ويفسر يوسف الحلم بحكمة ويصير الوزير الأول لمصر وأباً لفرعون إذن ما بدا تأخيراً ، كان إعداداً لوضع أفضل .

* * *

٣ - وربما يكون السبب هو اختبار إيماننا :

هل نتضايق حينما لا تستجاب صلواتنا في ذات الوقت ؟ هل نتذمر ؟ هل نلجأ إلى غيره ؟ هل يشكو لكل ؟ هل نجدف عليه ؟ أم أننا نصبر في إيمان وفي رجاء وثقة ؟ ... إنه اختبار من الله لإيماننا ، اختبار منا لأنفسنا . حتى إن وجدنا في أنفسنا ضعفاً ، نعالجه .

* * *

٤ - وربما يكون السبب هو أن نحصل على انسحاق القلب :

إن استجابة كل صلاة في وقتها ، ربما تؤدي بنا إلى الافتخار والمجد الباطل . بينما هذا (التأخير) قد يوصلنا إلى التواضع والانسحاق ، فنذكر أننا لسنا شيئاً ...

* * *

٥ - وقد يكون السبب هو أن نصلح مع الله :

فإن (تأخر) علينا في الاستجابة ، قد نراجع أنفسنا ، هل نحن أخطأنا إلى الرب ، فلم يستجب بسبب خطايانا؟ وهنا نتذكر قول الرب «ارجعوا إلىّ فارجع إليكم» (ملا ٢: ٧) يقودنا هذا الأمر إلى التوبة . ويكون وصولنا إلى التوبة هو الموعد المناسب الذي حدده الله ، بلا تأخير.

* * *

٦ - ربما يكون السبب هو أن ما نناله بسرعة ، لا نشعر بقيمته :

وقد لا نشكر عليه ، فإن (تأخرت) الاستجابة ، يزداد تعلقنا بالمطالبة وشعورنا بقيمة تحقيقها . فإذا ما استجيب بعد حين ، يزداد شكرنا لله ولا ننسى احسانه إلينا . وهذا يعمق ارتباطنا به ، كذلك نحرض على ما نلناه منه فلا نفقده بسرعة ...

* * *

٧ - وربما يصبر الله علينا في الضيقة ، لننال بركاتها :

إن استجاب لنا الله في التو واللحظة ، ورفع عنا الضيقة ، فلا يمكن أن ننال البركات التي نناها كلما طالّت مدة الضيقة ، واحتملنا وصبرنا ونأخذ بسبب ذلك أكاليل ، بل نأخذ خبرات روحية أيضاً .

ونأخذ فضيلة الصبر والتسليم وانتظار الرب .

* * *

٨ - وقد يكون السبب فيما نظنه تأخيراً ، هو أن الله يعد لنا بديلاً أفضل مما

نطلبه :

ذلك لأن الله يعطينا دائماً ما ينفعنا وما يناسبنا ، وليس مجرد الذي نطلبه .

إن الله لا يستجيب حرفية صلواتنا ، بل روحها . هو يعرف احتياجاتنا أكثر مما نعرف نحن . وهو يعرف الصالح لنا أكثر مما نعرف نحن . ويكفى أن نقول له إننا نريد ، وهو يختار بحكمته ما يراه نافعاً لنا ، وما يراه مطابقاً لمشيئته المقدسة المملوءة بحكمة .

* * *

٩ - ربما شعورنا أن الله قد تأخر علينا ، هو تعبير عن عدم أجادتنا لعبارة
«لتكن مشيئتك» .

إننا نقولها في الصلاة . ولكننا غالباً لا ندخل إلى عمقها ، ولا ندركها ولا نعنيها .
فإن تأخرت استجابة ما نطلب ، علينا أن نقول له : نحن يارب لا نفرض عليك
مشيئتنا ، إنما نصارك بما في داخلنا من رغبات ومن طلبات . فإن وجدت لها نافعة ،
حققتها في الوقت الذي تختاره . وإلا فلتكن مشيئتك ، بكل رضى قلوبنا ...

إنه تدريب على حياة التسليم ، المبنية على الثقة بتدابير الله .

المهم أن ننتظر الرب ، بقلب مملوء بالسلام والاطمئنان ، شاعرين أن قضيتنا قد
استقرت في يد الله الأمانة وفي قلب الله الخنون . وهذا يكفى ...





تَجِبُوا
صِغَارَ النَّفُوسِ
اسْتَدُوا الضُّعَفَاءُ

(اش ١٤:٥)

عن محاضرتين القيتا بالكاتدرائية يومى الجمعة ٢٢/١٠/٧٦ ، ٣٠/١٠/١٩٨٠ م .

الله العطوف

حقاً إن الله يحب أن يكون الإنسان قوياً في شخصيته ، قوياً في حياته الروحية ، قوياً في احتماله ، في خدمته ، في فهمه ، في كل شيء .

ولكنه مع ذلك هو إله الضعفاء أيضاً .

يسندهم في ضعفهم ، يشجعهم ويقويهم ، ولا يتركهم ... بل عن مثل هؤلاء ، قال السيد المسيح «روح السيد الرب عليّ . لأن الرب مسحني لأبشر المساكين ، أرسلني لأعصب منكسرى القلب ، لأنادي للمسيبين بالعتق ، وللمأسورين بالاطلاق ... لأعزي كل الناثحين ... لأعطيهم جمالاً عوضاً عن الرماد، ودهن فرح عوضاً عن النوح ، ورداء تسبيح عوضاً عن الروح اليائسة» (أش ٦١ : ١ - ٣) .

نعم إنه يسند هؤلاء اليائسين والمنكسرين والناثحين . ونقول عنه :

معين من ليس له معين ، ورجاء من ليس له رجاء .

عزاء صغيرى النفوس ، ميناء الذين في العاصف . أى أنه ميناء السلامة ، للذين في سفن تتقاذفها الأمواج والعواصف ... كما حدث للتلاميذ ، في يوم ريح شديدة ، وكانت سفينتهم في وسط البحر معذبة من الأمواج . فأبصروه قادماً إليهم ماشياً على الماء . وقال لهم «أنا هو، لا تخافوا» ... وسكنت الريح (مت ١٤ : ٢٤ - ٣٢) .

حقاً إنه معين من ليس له معين ، وكمثال ذلك :

شفاؤه مريض بيت حسدا ، الذى ليس له إنسان يلقيه فى البركة ...

حينما تقف وحيداً ، وليس لك إنسان يهتم بك ، ستجد الله حتماً إلى جوارك ...
حينما تهرب من عيسو الجبار الذى يريد أن يقتلك ، حينئذ سترى سلماً بين السماء والأرض ، وصوت الله يطمئنك قائلاً « ها أنا معك ، واحفظك حيثما تذهب .. »
(تك ٢٨ : ١٥) . حينما يطاردك فرعون حتى إلى البحر، وتصغر نفسك، سيشق لك الله فى البحر طريقاً ...

لا تصغر نفسك أمام الشدائد . وإن صغرت ، اسمع قول الرسول :

« شجعوا صغار النفوس ، اسندوا الضعفاء » (١ تس ٥ : ١٤) .

كذلك أنت ، إن رأيت إنساناً حائراً يائساً منهاراً ، لا تستصغره . وإن رأيت ساقطاً ، لا تحتقره . بل اسنده ، وقل له كلمة ترفع معنوياته . اعطه كلمة رجاء . افتح له طاقة من نور تضيء له الطريق .

يا أخى إن كنت على قمة الجبل ، فلا تحتقر الذين على السفح أو فى الوادى ، أو حتى الذين فى المستنقع ... وإن أعطاك الرب نعمة ووصلت ، فلا تنظر إلى الناس من فوق ، ولا تحتقر الذين لم يصلوا . أو حتى اليائسين وصغار النفوس . بل تذكر قول الرب :

« انظروا . لا تحتقروا أحد هؤلاء الصغار » (مت ١٨ : ١٠) .

مهما وصلت إليه حالتهم ، فالله قادر أن يقيمهم ، كما أقام من قبل أوغسطينوس وبيلاجية وموسى الأسود ... حتى إن كان شجرة غير مثمرة ، وعلى وشك أن تقطع ، فإن الكرام الحنون يشاء أن يتركها هذه السنة أيضاً ، وينقب حولها ويضع زبلاً ، فرمما تأتى بثمر فيما بعد (لو ١٣ : ٦ - ٩) ... إنه إلهنا الطيب الذى قيل عنه :

قصبة مرضوضة لا يقصف ، وفتيلة مدخنة لا يطفىء (مت ١٢ : ٢٠) .

ربما يعصب القصبة المرضوضة فتستقيم ، وينفخ فى الفتيلة المدخنة فتشتعل ...

إن الله يعطى فرصة لكل أحد . لأنه لا يشاء موت الخطيء ، بل أن يرجع ويحيا (حز ١٨ : ٢٣ ، ٣٢) ... وطالما الإنسان على قيد الحياة ، لا تزال أمامه فرصة للتوبة ، ولا يفقد الرجاء . فاللص اليمين آمن وعاد إلى الله ، وهو في الساعات الأخيرة من حياته على الأرض ... لقد كان هو أيضاً قسبة مرضوضة .

عبارة جميلة معزية قالها ربنا يسوع المسيح وهى :

ما جئت لأدين العالم ، بل لأخلص العالم (يو ١٢ : ٤٧) .

ليست فى فمى كلمة دينونة ، بل كلمة حب ، كلمة خلاص ومغفرة... بل الدينونة التى عليكم أنتم ، سأحملها أنا بدلاً منكم ، وأحوها عنكم بدمى ... حقاً يارب فمك حلاوة وكله مشتهيات (نش ٥ : ١٦) . تقول ما جئت لأدين ، بينما الدينونة كلها للابن ! (يو ٥ : ٢٢) .

أمثلة

إن البشرية الضعيفة المسكينة الساقطة ، سندها الله بالأنبياء .

حتى عندما رفضوه . أتى ليجذبهم إليه ... عندما تركوه ، وحفروا لهم آباراً مشققة لا تضبط ماء (أر ٢ : ١٣) ، لم يتركهم بل حدثهم عن ينبوع المياه الحية ... ولما عبدوا العجل الذهبى ، وقالوا هذه آلهتك يا اسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر (خر ٣٢ : ٤) ... لم يفنهم الرب ، بل رجع عن حو غضبه ، وقبل شفاعة موسى النبى فيهم ... ولا يزال الرب يصبر ويحتمل ، و يقيم الساقطين ويحل المربوطين (مز ١٤٥) .

فى صغر نفسك قد تيأس من خلاصك !
ولكن الله لا ييأس مطلقاً من اجتذابك إليه .

لقد جاء يطلب ويخلص ما قد هلك (لو ١٩ : ١٠) . سعى وراء العشارين

والخطاة وجلس على موئدهم . وقال « ما جئت لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة »
« لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى » (لوقا : ٣١ ، ٣٢) ... مدح العشار الذي
لم يجرؤ أن يرفع عينيه إلى فوق ، وقد وقف من بعيد ... وفضله على الفريسي ، وخرج
من عنده مبرراً (لوقا : ١٣ ، ١٤) .

حتى المرأة الخاطئة المضبوطة في ذات الفعل .

المرأة الغارقة في الحزى وصغر النفس ، التي اجتمع حولها الكتبة والفريسيون
ليرجموا ... أنقذها الرب من هؤلاء ، وقال لها « ولا أنا أدينك . اذهبي ولا تخطئي
أيضاً » (يوحنا : ٨ : ٣ - ١١) .

وكذلك الخاطئة التي بللت قدميه بدموعها ، ومسحتها بشعر رأسها ، رفع
معنوياتها ، وفضلها على الفريسي ، وقال إن خطاياها الكثيرة قد غفرت لها (لوقا :
٣٧ - ٤٧) .

من أجل معرفة داود النبي ، بحنان الله الذي يشجع صغار النفوس ، قال له في
توبته :

اغسلني ، فأبيض أكثر من الثلج (مز ٥٠) .

وعبارة « أكثر من الثلج » توضح مدى غنى حنان الله على الخطاة ، حتى قال عنه
المرتل في مزموره الجميل المعزى « باركبي يا نفسي الرب ، ولا تنسى كل حسناته .. »
قال : « كما يتراءف الاب على البنين ، يتراءف الرب على خائفيه » « لم يصنع معنا
حسب خطايانا ، ولم يجازنا حسب آثامنا . لأنه مثل ارتفاع السموات فوق الأرض ،
قويت رحمته على خائفيه . كبعد المشرق عن المغرب ، ابعد عنا معاصينا ... لأنه يعرف
جبلتنا يذكر أننا تراب نحن » (مز ١٠٣ : ١٠ - ١٤) .

إن الله ليس فقط يغفر لنا خطايانا ، بل يقول :

« ولا أذكر خطيتهم بعد » (أر ٣١ : ٣٤) .

يقول عن الخاطيء التائب « كل معاصيه التي فعلها لا تذكر عليه » (حز ١٨ : ٢٢) « كل خطيته التي أخطأ بها لا تذكر عليه » (حز ٣٣ : ١٦) . ويقول بولس الرسول عن عمل الفداء « إن الله كان في المسيح مصالحاً العالم لنفسه ، غير حاسب لهم خطاياهم » (٢ كو ٥ : ١٩) . ويقول المرتل في المزمور « طوبى للذي غفر إثمه وسترت خطيته . طوبى لرجل لا يحسب له الرب خطية » (مز ٣٢ : ١ ، ٢) . ويكرر القديس بولس الرسول هذه الآية في رسالته إلى رومية (رو ٤ : ٨) .

فالذي يصيبه صغر نفس بسبب خطاياها ، فليتذكر أنها لا تحسب عليه في توبته .

الله يحوها في التوبة ، ولا يعود يذكرها « إن كانت خطاياكم كالقرمز ، تبيض كالثلج » (اش ١ : ١٨) . بل أكثر من الثلج (مز ٥٠) .

ولنأخذ مثلاً لبطرس الرسول الذي انكر المسيح :

بل أنه أخذ « يلعن ويحلف أنى لا أعرف هذا الرجل الذي تقولون عنه » (مر ١٤ : ١٧) (مت ٢٦ : ٧٤) . ونسى قوله للسيد « وإن شك فيك الجميع ، فأنا لا أشك » « ولو أضطرت أن أموت معك لا أنكر » (مر ١٤ : ٢٩ ، ٣١) (مت ٢٦ : ٣٣ ، ٣٥) ... وهوذا الآن وقد أنكره ثلاث مرات ... لذلك وقع في صغر النفس ، وبكى بكاءً مرأً (مت ٢٦ : ٧٥) .

ولكن الرب لم يترك تلميذه بطرس لصغر النفس ، بل شجعه بأساليب كثيرة .

فبعد القيامة قال للمريعات « اذهبن وقلن لتلاميذه ولبطرس أنه يسبقكم إلى الجليل هناك ترونه » (مر ١٦ : ٧) . ولم يدمج بطرس وسط التلاميذ ، لأنه كان محتاجاً إلى اهتمام خاص ليرفع نفسيته بعد إنكاره ... ولما ظهر السيد المسيح لسبعة من تلاميذه عند

بحر طبرية ، قال لبطرس «أتجبنى أكثر من هؤلاء ؟ ارع غنمى ... ارع خرافى ..»
(يو ٢١ : ١٥ - ١٧) . ليظهر له أنه لم يسقط من درجته الرسولية بإنكاره له ... بل إن
بولس الرسول يقول عن ظهورات الرب بعد قيامته ، أنه ظهر لصفا ثم للاثنى عشر
(١كو ١٥ : ٥) .

وبالمثل فعل الرب مع توما في شكه .

كانت نفسه أصغر من أن تؤمن دون أن ترى ... كل التلاميذ آمنوا ، ما عداه .
فلم يتركه الرب إلى شكه وصغر نفسه ، بل ظهر له وأراه جروحه . وقال له «هات
يدك وضعها في جنبى . ولا تكن غير مؤمن بل مؤمناً» فأمن توما وقال «ربى وإلهى»
(يو ٢٠ : ٢٧ ، ٢٨) .

لننظر معاملة الرب لموسى الثقيل الفم واللسان (خر ٤ : ١٠) .

كان موسى يعرف عن نفسه هذا الضعف ، وأنه لا يصلح بسببه . وقد قال للرب
«لست أنا صاحب كلام ، منذ أمس ولا أول من أمس ، ولا من حين كلمت
عبدك» (خر ٤ : ١٠) . وقال له أيضاً «ها أنا أغلف الشفتين ، فكيف يسمع لى
فرعون» (خر ٦ : ٣٠) . ولكن الله شجعه ، ولم يتركه لصغر النفس .

بل إن هذا الأغلف الشفتين صار كلیم الرب .

وقال له « اذهب الآن ، وأنا أكون مع فمك ، وأعلمك ما تتكلم به » . وها هو
هارون أخوك «تكلمه وتضع الكلمات في فمه . وأنا أكون مع فمك ومع فمه .
وأعلمكما ماذا تصنعان ... هو يكون لك فماً ، وأنت تكون له إلهاً» (خر ٤ : ١٢ -
١٦) .

كذلك شجع الله صغار السن ، والخائفين من المسئولية :

لما قال له أرميا «إني لا أعرف أن أتكلم لأنى ولد» قال له الرب «لا تقل إني ولد... لا تخف من وجوههم، لأنى أنا معك لأنقذك يقول الرب» ومد الرب يده ولمس فم ارميا وقال له «ها قد جعلت كلامى فى فمك. انظر. قد وكلتك هذا اليوم على الشعوب وعلى الممالك، لتقلع وتهدم، وتهلك وتنقض، وتبنى وتغرس» (أر ١ : ٦-١٠).

ثم شجعه بالأكثر وقال له «هأنذا قد جعلتك اليوم مدينة محصنة وعمود حديد وأسوار نحاس على كل الأرض... فيحاربونك ولا يقدرُونَ عليك، لأنى أنا معك يقول الرب لأنقذك» (أر ١٨ : ١٩).

وبنفس الوضع شجع الرب يشوع بعد موت موسى .

لم يكن سهلاً على يشوع أن يملاً المكان الكبير الذى كان يشغله موسى النبى العظيم، لذلك كان صغيراً فى عينى نفسه . ولكن الرب شجعه قائلاً :

« لا يقف إنسان فى وجهك كل أيامك . كما كنت مع موسى ، أكون معك . لا أهلك ولا أتركك . تشدد وتشجع ... أما أمرتك . تشدد وتشجع . لا ترهب ولا ترتعب ، لأن الرب إلهك معك حيثما تذهب » (يش ١ : ٥ - ٩) ..

قصة عن القديس الأنبا ايسيدوريوس قس القلاى :

قيل عنه فى البستان : إن أى أخ كان يفشل الآباء فى اصلاحه ويطردونه ، كان الأنبا ايسيدوريوس يأخذه ، ويطيل أناته عليه حتى يخلص . ولذلك فإن الأنبا موسى ، حينما جاء إلى الدير ، وكان منظره مخيفاً ، حولوه إلى القديس ايسيدوريوس . كان الأنبا موسى فى أول توبته ، حمله ثقيل . وفى إحدى الليالى جاء إلى أبيه الأنبا ايسيدوريوس إحدى عشرة مرة . فلما نصحه بالذهاب إلى قلايته ، أجاب : «لا أستطيع يا معلم» لأن الأفكار كانت تضغط عليه بشدة .

وأطال القديس أناته عليه ، حتى تحول موسى الأسود إلى قديس .

حاولوا دائماً أن ترفعوا من نفسية الناس ومعنوياتهم « اسندوا الضعفاء » إن رأيتم إنساناً يبكته الكثيرون، و ينتقدونه، و يتهكمون عليه، وهو ذليل أمامهم : حاولوا أن تحتضنوه، و تقولوا فيه إن أمكنكم كلمة طيبة... تأكدوا أنه لن ينسى هذا الموقف النبيل منكم كل أيام حياته...

إن هذه رسالة القلوب الكبيرة، المحبة الخنونة، نحو صغار النفوس.

إن وجدت إنساناً مربوطاً بالخطية، فلا تعيره، بل فكّه من رباطاته.

لا تكن مثل رجل رأى شاباً يصارع الفرق في البحر. فظل يوبخه ويقول له : يا ابني، مادمت لا تتقن العوم، فلماذا تنزل إلى البحر؟! فقال له الشاب : انقذني يا سيدي من الفرق، ثم وبخني بعد ذلك كما تشاء..!

هكذا أنت لا تعير أحداً بفشله. بل اعطه رجاء في النجاح.

لا تقل : نصحت كثيراً ولا فائدة. بل أطل أُناتك.

هوذا الرسول يقول « ... اسندوا الضعفاء . تأنوا على الجميع » (١ تس ٥ : ١٤). إن الانتصار على خطية متأصلة، يحتاج إلى وقت وإلى صبر. فأصبر على الضعفاء، ريثما تفتقدهم النعمة وتنجيهم. واذكر أنك أيضاً تحت الآلام مثلهم. ضع أمامك قول الرسول « اذكروا المقيدون كأنكم مقيدون معهم، والمذلين كأنكم أيضاً في الجسد » (عب ١٣ : ٣)...

تذكر ان الذين ثبطوا همة الشعب، لم يسمح لهم الله بدخول أرض الموعد.

أولئك الذين قالوا « لا نقدر أن نصعد إلى الشعب لأنهم أشد منا... قد رأينا هناك الجبابرة بنى عناق... فكنا في أعيننا كالجراد » (عد ١٣ : ٣١ ، ٣٣) ... ولم يدخل الأرض سوى يشوع بن نون، وكالب بن يفته، الذي قال في رجاء «إننا نصعد ونمتلكها، لأننا قادرون عليها» (عد ١٣ : ٣٠) ...

ابحث عن النقط البيضاء في حياة الإنسان الخاطيء أو الضعيف. اظهرها وامتدحها.

فهكذا فعل السيد المسيح مع المرأة السامرية ، على الرغم من خطاياها. قال لها «حسناً قلت ليس لى زوج...» «هذا قلت بالصدق» (يو ٤ : ١٧ ، ١٨). ووسط هذا المديح شجعها على الاعتراف. وربح نفسها للتوبة...

هناك إنسان تشجعه بكلمة طيبة ، وآخر بقدوة صالحة ، أو بذكر قصص وآيات ، أو بتهوين الأمر عليه ، أو بالتحدث عن نعمة الله وعملها... كذلك بالتغاضى عن كثير من أخطائه . لأن التوبيخ على كل خطأ قد يوقع فى اليأس .



الله
الَّذِي يَبْدَأُ

هناك أسلوبان في حياة التوبة ، وفي العلاقة بين الله والإنسان :

١ - أن يأتي الإنسان إلى الله ، فيقبله الله ...

وذلك حسب وعد الله الصادق « من يقبل إليّ ، لا أخرجته خارجاً » (يوحنا : ٣٧) . وهذا هو الذي حدث للابن الضال : شعر بسوء حالته ، وقال أقوم واذهب إلى أبي . وفعلاً ذهب إليه ، فقبله أبوه فرحاً (لوقا : ١٥ : ١٧ - ٢٤) . ويطلب الله منا هذه التوبة وهذا الرجوع إليه ، فيقول « ارجعوا إليّ فأرجع إليكم » (ملا : ٣ : ٧) .

٢ - الأسلوب الثاني : أن يبدأ الله العلاقة مع الإنسان .

هو الذي يذهب إليه . يسمى إلى خلاصه ، كما سعى وراء الخروف الضال حتى وجده وحمله على منكبيه فرحاً (لوقا : ١٥ : ٤ ، ٥) ، وعن هذه المبادرة الإلهية ، يقول « أنا واقف على الباب أقرع . من يفتح لي ، ادخل واتعشى معي ، وهو معي » (رؤيا : ٣ : ٢٠) .

ونود في هذا الفصل ، أن نركز على بدء الله بالعمل معنا .

الإنسان قد لا يبدأ مع الله ، لأسباب عديدة :

* ربما لأنه مغلوب من شهواته .

تضغط عليه الشهوة من داخل قلبه ، أو تحاربه بشدة من الخارج ، وتؤثر عليه وتأسره . بحيث أصبح يحب الخطية ، ولا يريد أن يبرأ منها (يوحنا : ٥ : ٦) . فماذا يفعل مثل هذا الإنسان ؟ هل ييأس ويفقد الرجاء ؟ أم أن الله يبدأ العمل معه : يفتقده ، ويقرّع على بابه ، ويجتذبه إليه ؟ يقيناً إن هذا يحدث .

* وربما الإنسان لا يبدأ ، لأنه مشغول عن الله بأمور كثيرة :

وهذه المشغوليات لا تترك له وقتاً يتفرغ فيه لله... كما قال الرب لمرثا: «أنت تهتمين وتضطربين لأجل أمور كثيرة، ولكن الحاجة إلى واحد» (لوقا: ١٠: ٤١)، (٤٢)... إنسان ليس لديه وقت لله... ليس لديه وقت للصلاة، ولا للقراءة والتأمل، ولا للخدمة... يحتاج إلى يد قوية، تنزعه من كل هذا...

★ وربما الإنسان لا يبدأ ، بسبب الجهل . لا يعرف كيف يبدأ .

مثل أهل نينوى الذين قيل عنهم إنهم «لا يعرفون يمينهم من شمالهم» (يون: ٤: ١١). فبدأ الله معهم، وأرسل إليهم يونان النبي ليهديهم إليه. ومثل شاول الطرسوسي، الذي كان بجهل يضطهد الكنيسة (١ تي: ١: ١٣). فكان لابد أن يظهر له المسيح ويجتذبه إليه. وأيضاً حينما تأثر بهذا الظهور وآمن، قال «ماذا تريد يا رب أن أفعل؟» (أع: ٩: ٦).

عبارة «ماذا أفعل؟» قالها أيضاً الشاب الغنى (مت: ١٩: ١٦). وقالها أيضاً اليهود في يوم الخمسين (أع: ٢: ٣٧). ويقولها كثيرون...

★ وربما الإنسان لا يبدأ ، بسبب الضعف .

فهو يقول «الشر الذي لست أريده إياه أفعل» «الإرادة حاضرة عندي، وأما أن أفعل الحسنى فليست أجد» «أرى ناموساً آخر في أعضائي، يجارب ناموس ذهني، ويسبيني إلى ناموس الخطية» «ويحى أنا الإنسان الشقي، من ينقذني من جسد هذا الموت» (رو: ٧: ١٨-٢٤).

إذن لابد أن يبادر الله، وينقذ مثل هذا الإنسان...

وهنا لعل إنساناً يسأل:

إذا لم استطع أنا أن أبدأ، هل الله مستعد أن يبدأ معي؟

نعم يا أخى، هو مستعد أن يبدأ. بل هذا هو أسلوبه باستمرار. والكتاب

المقدس مزدحم بأمثلة كثيرة، فيها كان الله هو الذى يبدأ، منذ خلق الإنسان، وقبل خلقه أيضاً. ولنحاول أن نتأمل كل هذا معاً ...
* * *

هناك حقيقة ثابتة، يسجلها الكتاب المقدس، وهى:

علاقة الله بالإنسان، الله هو الذى بدأها ...

* بدأت العلاقة بأن الله خلق الإنسان. وطبعاً لو لم يخلقه ما كانت هناك علاقة. وأضاف الله إلى هذا، أنه خلقه على صورته ومثاله كشبهه، ومنحه الروح الذى به ينشئ علاقة معه ...

*** وإلى جوار الخلق: لما سقط الإنسان، الله هو الذى بدأ العلاقة.**

لم يبدأ الإنسان بالسعى إلى الله ليعترف بخطيته ويطلب المغفرة والمصالحة، بل العكس لقد هرب من الله، وأختبأ وراء الشجر. فذهب الله إليه، وكلمه، وشجعه على الاعتراف. ووعده بالخلاص، حينما قال إن نسل المرأة يسحق رأس الحية (تك ٣).

وكان الله كان يقول لآدم: هل أنت خائف منى يا آدم؟ لا تخف، أنا سأصالحك. هل أنت مرتعب من الخطية ونتائجها؟ لا تخف. أنا سأغفر لك. سأعد لك طريق الخلاص ...

*** ولاشك أن الله هو الذى بدأ بإعداد هذا الخلاص العجيب.**

هو الذى علّم البشرية عقيدة الفداء والكفارة، وموت نفس بريئة طاهرة عن نفس خاطئة مستحقة للموت. وهو الذى وضع للإنسان شرائع الذبائح والمحرقات، وقواعد النجاسة والتطهير. وهو الذى أعطانا التوبة للحياة (أع ١١: ١٨).

*** والله هو الذى بدأ بالوحى، وأرسل إلينا الأنبياء.**

كل ذلك لتعليمنا وارشادنا، وتوصيل كلمته إلينا. وهو الذى أعطى هؤلاء الرسل «خدمة المصالحة» (٢كو ٥: ١٨). حتى أن القديس بولس الرسول قال «نسعى كسفراء عن المسيح، كأن الله يعظ بنا. نطلب عن المسيح: تصالحوا مع الله» (٢كو ٥: ٢٠). إذن الله هو الذى يبدأ عملية المصالحة، ويرسل رسله لتمهيدها.

★ هو الذى تجسد ، ونزل إلينا ، ليفدينا ومخلصنا .

وما كنا نحن نعرف شيئاً عن التجسد والفداء ، وما كنا نطلبه . ولكن الله أظهر محبته لنا ، بهذا الخلاص العجيب « هكذا أحب الله العالم ، حتى بذل ابنه الوحيد ، لكي لا يهلك كل من يؤمن به ، بل تكون له الحياة الأبدية » (يوحنا : ٣ : ١٦) .

وفى علاقته بالإنسان ، الله هو الذى بدأ بالدعوة .

سواء بالنسبة إلى النبوة ، أو الرسولية ، أو الكهنوت ...

الله هو الذى دعا أبانا نوح ، وكلفه بصنع الفلك ، والدخول فيه ، ليخلص هو وأسرته ، ولكى يستبقى الله حياة على الأرض (تك ٦ - ٨) . وكان الفلك فى الماء ، رمزاً إلى المعمودية « الذى فيه خلص قليلون ، أى ثمانى أنفس بالماء . الذى مثاله يخلصنا نحن الآن ، أى المعمودية » (بط ١ : ٢٠ ، ٢١) .

وكما دعا الله نوحاً ، دعا أبانا ابراهيم ، ليكون له شعباً يسير فى طريق الخلاص .

ابرام لم يبدأ هذه العلاقة ، إنما بدأها الله معه . دعاه ليتبعه فى الأرض التى يريه إياها ، وباركه . وقال له « تتبارك فىك جميع قبائل الأرض » (تك ١٢ : ١ - ٣) . وأيضاً « تتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض » (تك ٢٢ : ١٨) .

ونفس الوعد أعطاه الرب لأبينا يعقوب ، فقال له « ويتبارك فىه وفى نسلك جميع قبائل الأرض » (تك ٢٨ : ١٤) .

الله هو الذى بدأ ، فمنح البركة .

منح البركة منذ البدء لأبونا الأولين آدم وحواء (تك ١ : ٢٨) . وكرر نفس البركة لأبينا نوح وبنيه (تك ٩ : ١) . ومنح البركة لأبينا ابراهيم (تك ١٢ : ١٢) (تك ٢٢ : ١٧ ، ١٨) . ولأبينا اسحق (تك ٢٦ : ٢٤) ، ولأبينا يعقوب (تك ٢٨ : ١٤) .

وكانت أعظم بركة ، أن ينتهى من نسلهم المسيح ، وبه تتبارك جميع قبائل الأرض ، بالخلاص الذى يقدمه للعالم .

فالخلاص هو الهبة العظمى ، الذى بدأ الله بها ، وأكملها من أجل محبته للإنسان ،
لأنه :

« يريد أن الجميع يخلصون ، وإلى معرفة الحق يقبلون » (اتي ٢ : ٤) .

ومن أجل هذا الخلاص دعا الأنبياء والرسل :

* دعا موسى النبي ، حينما كلمه من العليقة (خر ٣ : ٤) ، وذلك لكي يرسله
لخلاص الشعب ، وما كان موسى مفكراً وقتذاك في هذه الدعوة ، ولا في السعى
لتخليص الشعب ، بل اعتذر عن ذلك أكثر من مرة (خر ٤ : ١٠ ، ١٣) .

* ودعا الله أناساً من بطون أمهاتهم .

كما قال لأرمياء الطفل « قبلما صورتك في البطن عرفتك ، وقبلما خرجت من
الرحم قدستك . جعلتك نبياً للشعوب » (أر ١ : ٥) . وكذلك يوحنا المعمدان ، الذى
قال عنه الملاك « ومن بطن أمه يمتلئ من الروح القدس » (لو ١ : ١٥) . ومثل أبينا
يعقوب (رو ١ : ١٣ - ١) (تك ٢٥ : ٢٣) .

ومعلمنا القديس بولس الرسول قال عن دعوته « لما سرّ الله الذى أفرزنى من بطن
أمى ، ودعانى بنعمته ... » (غل ١ : ١٥) . ثم لما حل الوقت المناسب ، كان الله أيضاً
هو الذى بدأ ، فقابله في طريق دمشق ، وظهر له بنور مبهر ودعاه (أع ٩) .

* وجميع رسل السيد المسيح ، هو الذى دعاهم ، بل قال لهم :

« لستم أنتم اخترتمونى ، بل أنا اخترتكم ... » (يو ١٥ : ١٦) .

وأكمل قائلاً « وأقمتكم لتذهبوا وتأتوا بشمر ويدوم ثمركم » . وكما اختار الرسل
الاثنى عشر (مت ١٠ : ١) ، كذلك اختار السبعين أيضاً (لو ١٠ : ١) .
ما فكر بطرس واندراوس أن يتبعا المسيح ، وهما مشغولان بشباكهما . وما فكر
متى أن يكون أحد تلاميذ المسيح ، وهو موظف في مكان الجباية ، وهكذا بالنسبة إلى
الباقيين ... ولكن الرب هو الذى بدأ بتكوين علاقة ودعا كل هؤلاء ...

« الذين سبق فعرفهم ، سبق فعينهم ... وهؤلاء دعاهم أيضاً » (رو ٨ : ٢٩ ، ٣٠) .

هو الذى يناديك من حيث لا تعلم ، وحيث لا تتوقع ، ويقول لك «هلم ورائى» . وهو الذى يقودك فى الطريق ، ويمنحك القوة... المهم أن يكون قلبك مستعداً .

إن ظهورات الرب لتلاميذه بعد القيامة، تعطينا فكرة جميلة عن الله الذى يبدأ...

* فى تلك الفترة ، كان السيد هو الذى يذهب إلى تلاميذه ، وما كانوا هم الذين يأتون إليه . ولعل من الأشياء الجميلة التى تستدعى التأمل : أنه ظهر لهم وهم جلوس فى العلية ، والأبواب مغلقة (يو ٢٠ : ١٩) .

هل جربت وقتاً ، كانت فيه أبوابك مغلقة ، ثم اخترقها المسيح ليتحدث إليك؟!!

معقول ومقبول ، أن يتحدث المسيح إلينا ، حينما تكون أبوابنا مفتوحة له (رؤ ٣ : ٢٠) . أما أن يدخل و يظهر ويتحدث إلينا ، والأبواب مغلقة ، فهذا هو الأمر العجيب الذى يناسب محبته .

على أنه بالنسبة إلى الرسل ، كانت أبوابهم مغلقة بسبب الخوف ، لا بسبب الرفض ...

* وظهر السيد لتلاميذه أيضاً ، وهم منهمكون فى أمور مادية :

الأصحاح الأخير من إنجيل يوحنا ، يشرح لنا كيف ظهر السيد المسيح لسبعة من تلاميذه كانوا يصيدون السمك ، ومنهم بطرس ويوحنا... فقد حدث أنهم رجعوا إلى صيد السمك (يو ٢١ : ٣) . ومع ذلك ظهر لهم الرب أثناء الصيد . وفى ذلك يقول القديس أغسطينوس «إن المسيح ظهر لبطرس ، ليس وهو منهمك فى صيد النفوس . إنما ظهر له المسيح ، وهو منهمك فى صيد السمك...» .

لعل فى ذلك تعزية لنا ، أن الرب مستعد أن يظهر لنا ، ليس فقط ونحن فى عمل روحى ، بل حتى ونحن فى العمل المادى أيضاً... هو الذى يبدأ : يظهر ، ويبدأ الحديث ، لصالحنا .

* وظهر أيضاً لتلميذين ، وهما لا يعرفانه ...

إنهما تلميذا عمواس . ظهر لهما وهما لا يعرفانه . بل لما سألهما عن موضوع حديثهما ، أجاباه «هل أنت متغرب وحدك فى أورشليم ، ولم تعلم الأمور التى حدثت فى تلك الأيام» ...

وبدأ المسيح من موسى ومن جميع الأنبياء ، يفسر هُما الأمور المختصة به في جميع الكتب (لو ٢٤ : ١٨ - ٢٧) ... وأخيراً انفتحت أعينهما وعرفاه (لو ٢٤ : ٣١) .

إن كنت بعد لم تعرفه ، هو مستعد أن يظهر لك ، ويكشف لك ذاته ، ويفسر لك الأمور المختصة به ... ويجعل قلبك ملتهباً فيك ، وهو يوضح لك الكتب (لو ٢٤ : ٣٣) .
هو الذى يبدأ ...

حتى في التوبة ، غالباً ما يبدأ الله عمله فينا . وكل ما يطلبه أن نتجاوب معه .

هو الذى بدأ فأعطانا الضمير ، وأعطانا التمييز . وأيضاً روحه القدوس يكتنا على خطية (يوح ١٦ : ٨) ... كل ذلك لكي يدفعنا إلى التوبة .

وإن كنا متراخين ، يرسل لنا كلمة تحثنا ، عظة مؤثرة ، كتاباً نافعاً .

وتتابعنا زيارات النعمة ، تدفعنا إلى التوبة .

وربما يسمح الله لنا بمرض أو ألم ، ليجعلنا نفيق من غفلتنا ، أو يسمح بحادث معين يكون له تأثيره . أو يتكلم في قلوبنا خلال تأثرنا بوفاة أحد أحبائنا . وهكذا إلى سائر الوسائل التي نشعر فيها أن الله ينخس قلوبنا للتوب . إنما المهم أن نتجاوب ، ولا نرفض مناخس (أع ٩ : ٥) .

أترانا نستطيع أن نصل إلى التوبة ، بمجرد مجهودنا الخاص ؟ كلا ، فالرب يقول :

بدونى لا تقدرُونَ أن تعملوا شيئاً (يو ١٥ : ٥) .

لنا رجاء إذن أنه يعمل فينا لأجل خلاصنا . حتى إن كنا لا نريد ، نرجو أن يمنحنا هذه الإرادة . ألم يقل القديس بولس الرسول « ..لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا لأجل المسرة » (في ٢ : ١٣) لذلك «تمموا خلاصكم بخوف ورعدة» ...

داود النبي أخطأ ، وما كان يشعر بخطورة خطيئته :

وظلت خطية تقودة إلى أخرى ، وهو يتمادى ولا يشعر بما هو فيه ، إلى أن أرسل الله إليه ناثان النبي ، فضرب له مثلاً شعر به بعمق جرمه ... ومن هنا بدأت معه قصة التوبة والدموع والندم ، والتي سجلها في كثير من مزاميره . وكان الله هو البادى ليقوده إلى انسحاق النفس ...

مثال آخر هو لوط في أرض سادوم .

لقد أختار لوط الأرض المعشبة ، مع بيئتها الخاطئة المعثرة ، وسكن في سادوم وتمادى فزوج بناته من أهلها . ويقول القديس بطرس في رسالته الثانية عن عمل الرب معه « وأنقذ لوطاً البار مغلوباً من سيرة الأردياء في الدعارة . إذ كان البار بالنظر والسمع - ، هو ساكن بينهم - يعذب يوماً فيوماً نفسه البارة بالأفعال الأثيمة » (٢بط ٢ : ٧ ، ٨) .

أوقع الله أهل سادوم في السبي ، ولم يأخذ لوط درساً . وبعد أن أنقذه ابرام ، عاد مرة أخرى إلى سادوم . ولما أراد الله حرق المدينة أرسل ملاكين يعجلان لوطاً للخروج منها « ولما توانى أمسك الملاكان بيده وييد امرأته وييد ابنتيه ، لشفقة الرب عليه ، وأخرجاه ووضعاه خارج المدينة .. » (تك ١٩ : ١٦) .

ثق أن الله مستعد أن يعمل معك كما عمل مع لوط ، ويخرجك من أرض الخطية فعليك أن تستسلم لقيادته ، ولا تنظر إلى الوراء كما فعلت امرأة لوط ...

صلّ إذن وقل : اعمل يارب معي . ولا تنتظر حتى أبدأ أنا ، فربما لا أبدأ !

ابداً معي كما فعلت مع هؤلاء وغيرهم . خذني من سادوم اخرجني منها ، بواسطة ملائكتك القديسين . وليظل يدوي في أذني صوتك الحنون « اهرب لحياتك . ولا تقف في كل الدائرة ... لكلا تهلك » (تك ١٩ : ١٧) .
أما نحن فليتنا نفنى مع المرتل « نجت أنفسنا مثل العصفور من فخ الصيادين . الفخ أنكسر ونحن نجونا . عوننا من عند الرب » (مز ١٢٣) .

أنت يارب الذى كسرت الفخ . إذ لا يستطيع عصفور أن يكسر فخ

الصيادين ...

هل كانت مريم القبطية تفكر في التوبة ١٩ كلاً ، بل كانت ماضية لارتكاب مزيد من الخطايا . ثم تدخل الله في حياتها ، وحدثت معجزة منه أيقظتها ودفعها إلى التوبة . واستمر عمل الله معها حتى تحولت إلى ناسكة سائحة ...

وبالمثل تدخل الله في حياة أوغسطينوس وبيلاجية وسارة ، وحول دفة الحياة إلى طريقه هو . وكان هو البادىء ...

حتى في الخدمة ، هو الذى يدعو ويرسل ، ويمنح قوة من روحه القدوس لنعمل بها ، بل قد يعد لنا كل شيء ويقول لنا :

« أنا أرسلتكم لتحصدوا ما لم تتعبوا فيه » (يوحنا : ٤ : ٣٨) .

« آخرون تعبوا ، وأنتم دخلتم على تعبهم » ... كل شيء يعده لنا . حتى الكلمة : هو يمنحنا كلمة عند افتتاح فمنا » (أف : ٦ : ١٩) . وهو الذى يعطى التأثير للسامعين لكى يعملوا بما سمعوه ... فإن كان أحد يخاف الخدمة ، فليذكر دائماً عمل الله فيها ...

حتى الأبدية ، الله هو الذى يبدأ فيقول عن نصيبنا فيها :

« أنا ماض لأعد لكم مكاناً ... » (يوحنا : ١٤ : ٢) .

مباركة هي محبتك يارب . ليتك تعد لنا هذا المكان . حتى تأتى وتأخذنا إليك .
وحيثما تكون أنت ، نكون نحن أيضاً (يوحنا : ١٤ : ٣) .



الفصل الثالث عشر



نَهَايَةَ أَمْرٍ

خَيْرٍ

مِنْ بَدَايَتِهِ

في قصة القيامة نرى كيف أن تعب التلاميذ وخوفهم في يوم الجلجثة والصلب، قد انتهى بفرحهم واطمئنانهم في يوم القيامة .

ولعل هذا يذكرنا بآية هامة وردت في سفر الجامعة :

« نهاية أمر خير من بدايته » (جا ٧ : ٨) .

طبعاً على شرط أن تكون نهاية طيبة ...

والنهاية الطيبة تجعل الإنسان ينسى كل تعب، ولا يذكر سوى هذه النهاية المفرحة التي تعزیه . تماماً كما أن قيامة السيد المسيح محث من مشاعر التلاميذ كل ما قاسوه في يوم الصلب .

* * *

وهكذا نرى الناس دائماً يبحثون عن النهاية، ويهتمون بها .

وذلك في كل نواحي الحياة : تروى قصة، أو تشاهد رواية، وكل ما يهمك هو كيف انتهت القصة أو الرواية... قضية، أو خلاف بين زوجين، أو حادث في الطريق... المهم كيف انتهى؟ ... وقد يشرح لك الراوي تفاصيل ما حدث، ولكنك تسأل في لطفة : والنهاية؟ ... نفس الوضع في أية مباراة، أو أية منافسة، أو أية حرب بين دولتين، أو أي حوار أو تفاوض... السؤال المهم هو: وماذا كانت النهاية أو النتيجة...

* * *

حتى في الحياة الروحية : الأهمية كلها هي في النهاية... ولذلك فإن القديس بولس الرسول يقول عن رجال الله :

انظروا إلى نهاية سيرتهم ، فتمثلوا بإيمانهم (عب ١٣ : ٧) .

إنه نفس الوضع الذي تذكره الكنيسة في أعياد القديسين... قليل هم الذين

تعيد الكنيسة ميلادهم : كالعذراء (أول بشنس) و المعمدان (٣٠ بؤونة) والأنا
شنوده رئيس المتوحدين (٧ بشنس) . ولكن كل أعياد القديسين تقريباً هي في
أيام نياحتهم أو أيام استشهادهم ، في نهاية سيرتهم ، حيث اكملوا جهادهم
بسلام .

لأن هناك أشخاصاً بدأوا بداية طيبة ، وانتهوا بنهاية سيئة .

من أمثلة أوائك ديماس تلميذ بولس الرسول ، الذي كان يذكره ضمن أعمدة
الكنيسة مع القديسين مرقس ولوقا واسترخس . ولكنه قال عنه أخيراً « ديماس تركني
لأنه أحب العالم الحاضر » (٢تى ٤ : ١٠) . وقال أيضاً عن أمثال ديماس هذا
« ... كثيرين ممن كنت اذكرهم لكم مراراً ، والآن اذكرهم أيضاً باكياً ، وهم أعداء
صليب المسيح ، الذين نهايتهم الهلاك ... ومجدهم في خزيهم » (في ٣ : ١٨ ، ١٩) .

عجيب عن هؤلاء ، أن نهايتهم الهلاك ! إذن المهم هو النهاية .

لأن كثيرين بدأوا بالروح ، وكمملوا بالجسد ، مثل أهل غلاطية ...

وسليمان الحكيم ، بدأ بحكمة فائقة ، وانتهى بالأصنام (١مل ١١) ... نرجو أن
تكون له نهاية أخرى فاضلة ، وهي زهده الذي ورد في سفر الجامعة دليلاً على توبته .
وهنا نقول « نهاية أمر خير من بدايته » أو هكذا قال الوحي الإلهي على فم سليمان ...

قصص نهايات طيبة

ويحكى لنا الكتاب قصص نهايات طيبة ، نذكر من بينها :

١ - قصة يوسف الصديق ، التي بدأت بخيانة اخوته وقسوتهم ، وبيعهم له
كعبد ، واشتغاله خادماً في بيت فوطيفار ، ثم تليفق تهمة له ، والقائه في السجن .
ولكن المهم هو النهاية ، التي صار فيها أباً لفرعون (تك ٤٥ : ٨) والمتسلط على كل
أرض مصر ، وفرحته بلقاء أبيه واخوته الذين بكوا بين يديه طالبين المغفرة . حقاً إن
نهاية أمر خير من بدايته :

نفسى الوضع نقوله عن دانيال والثلاثة فتية :

دانيال القى فى جب الأسود . ولكن انتهى الأمر بأن الله أرسل ملاكه فسدّ أفواه الأسود (دا : ٦١ : ٢٢) . والثلاثة فتية ألقوهم فى أتون النار، ولكن انتهى الأمر بأن رأوهم وسط النار بلا أذى ، وقد سار معهم رابع شبيه بابن الآلهة (دا : ٣١ : ٥) .

وانتهى الأمر فى القصتين بعبادة الإله الحق ، وتمجيده فى كل المملكة أكثر من كل آلهة الأمم . حقاً إن نهاية أمر خير من بدايته .

* * *

ونفس الكلام نقوله عن أيوب الصديق الذى تعرض لتجربة قد تفوق احتمال البشر، وفقد أولاده وماله وصحته وكرامته... وبلغت التجربة ذروتها . ولكن ماذا كانت النهاية؟ يقول الكتاب «ورد الرب سبى أيوب . وزاد الرب على كل ما كان لأيوب ضعفاً... وبارك الرب آخرة أيوب أكثر من أولاه... وعاش أيوب بعد هذا مائة وأربعين سنة . ورأى بنيه وبنى بنيه إلى أربعة أجيال...» (أى ٤٢ : ١٠ - ١٧) ... حقاً إن نهاية أمر خير من بدايته .

* * *

ويعوزنى الوقت إن تحدثت عن النهايات الطيبة التى ذكرها الكتاب فى تقديم اسحق محرقة، وفى بناء نحميا لأسوار أورشليم بعد أن تهدمت واحرقت أسوار المدينة بالنار (نح ١)، وكيف نصره الله أخيراً . كذلك قصة المسبيين فى بابل ، وكيف عادوا أخيراً، بعد أن بكوا على أنهار بابل ، وعلقوا قيثاراتهم على الصفاف ، وقالوا كيف نسبح الرب فى أرض غريبة (مز ١٣٦) كلها نهايات طيبة ، نقول فيها «نهاية أمر خير من بدايته» .

* * *

نفس الوضع نقوله أيضاً فى كل قصص التائبين .

كلما نذكر حياة القديس أوغسطينوس ، وكيف بدأ حياة مستهتره ماجنة ، وكذلك القديس موسى الأسود ، وكيف بدأ قاتلاً قاسياً . والقديسة مريم القبطية ، والقديسة بيلاجية ، والقديسة سارة ، وكيف بدأن بحياة الزنا ، وانتهت حياتهن كقديسات عظيمات . ألسنا نقول عن حياة كل من هؤلاء التائبين والتائبات «نهاية أمر خير من بدايته» ...

إذن على كل واحد أن يبحث في كل أمر: كيف تكون النهاية؟

كل طريق تسلك فيه أسأل نفسك: ما نهاية هذا الطريق؟ وكذلك فكر بنفس التفكير في كل مشروع تبدو، وكل علاقة تكونها مع آخرين...

شاب مثلاً يجب فتاة ليست من دينه، عليه أن يفكر ماذا تكون نهاية هذه العلاقة؟ ما مصيرها وما مصيره؟! إنسان يختلف مع زوجته، ويستخدم الخلاف بينهما، بلا صلح، فليفكر أيضاً: ماذا ستكون نهاية هذا الخلاف، وإلى أين يقوده؟! شاب يبدأ التدخين، ولو بسيجارة واحدة مجارة لزملائه، أو تجربة لطعم التدخين، عليه أن يفكر كثيراً: ما نهاية هذا الأمر.

وبنفس الطريقة في كل ممارسة يمكن أن تتحول إلى عادة:

يسأل الإنسان نفسه: وما نهاية هذه الممارسة؟

بل كل لفظ يقولها، وكل غضب يشتعل في داخله، فليسأل نفسه: وما النهاية؟ وماذا ستكون ردود الفعل وتصرفات الطرف الآخر؟ وإلى أين ينتهي به الغضب؟ وإلى أين تنتهي به الكلمة غير المنضبطة.

ذلك أيضاً في كل مشكلة تحل بك، لا تيأس ولا تضطرب، بل قل لنفسك «نهاية أمر خير من بدايته».

قل لنفسك «مصيرها تنتهي»... هذا الموضوع لا بد ستكون له نهاية. والنهاية في يد الله. والله رؤوف وحنون. وبلا شك «نهاية الأمر ستكون خيراً من بدايته»...

وهذا اللون من التفكير، لا يكون فقط بالنسبة إلى مشاكلك أنت وحدك، وإنما أيضاً بالنسبة إلى كل مشكلة أو ضيقة تحل بمعارفك وأصدقائك، بل وبالكنيسة نفسها...

لعل فكر الشهداء والمعترفين أيضاً كانت تدور به هذه الآية:

ما نهاية العذاب والموت؟ أليس هو الوصول إلى العالم الآخر؟ إلى الفردوس، إلى الأكاليل، إلى النعيم الأبدى في نهاية الأمر كله. وهذا بلا شك أفضل جداً. إذن أين

شوكتك يا موت ؟ لقد زالت . ونهاية الأمر خير من بدايته ...

الأبدية بلاشك هي نهاية أفضل ...

العالم الآخر هو عالم أفضل ، حيث « ما لم تره عين ، ولم تسمع به أذن ، ولم يخطر على بال إنسان ، ما أعده الرب لمحبي اسمه القدوس » (١ كو ٢ : ٩) ... والجسد الروحاني السماوي الذي نعيش به بعد القيامة (١ كو ١٥ : ٤٤ - ٤٩) لاشك إنه أفضل من جسدنا المادي هذا ... وفي الأبدية عشرتنا مع الله وملائكته وقديسيه ، هي أفضل بما لا يقاس من عشرة هذا العالم الحاضر . ووجودنا في عالم كله خير ، هو أفضل من وجودنا هنا ، حيث يوجد الخير والشر ، وحيث يعيش الزوان إلى جوار الحنطة ...

إذن الأبدية أفضل . فلماذا نخافها ؟ ولماذا لا نستعد لها .

واعلنا في الضيقات نذكر العتاب الذي قدمه أرمياء النبي لرب المجد قائلاً له « أرب أنت يارب من أن أخاصمك . ولكن اكلمك من جهة أحكامك : لماذا تنجح طريق الأشرار ؟ اطمئن كل الغادرين غداً ؟ ! » (ار ١٢ : ١) .

ويحيب القديس أغسطينوس عن هذا السؤال بالنظر إلى النهاية : فيقول إن الأشرار كالمدخان ، يرتفع دائماً إلى فوق . وفيما يرتفع وتتسع رقعته يتبدد . بينما النار تبقى اسفل ، ولكنها ثابتة وقوية .

لذلك فعلى الإنسان أن يهتم بالنهاية قبل كل شيء ، مهما كان بدء الأمر فيه تعب أو ضيق ...

نهاية طيبة مع بداية متعبة

الحياة الروحية ، تبدأ بالباب الضيق والطريق الكرب (متى ٧ : ١٣ ، ١٤) . ولكن هذا الضيق يؤدي إلى النعيم الأبدى بينما « واسع الباب ، ورحب الطريق ، الذي يؤدي إلى الهلاك » ... ولذلك ما أجل قول المرتل :

« الذين يزرعون بالدموع ، يحصدون بالابتهاج » (مز ١٢٥) .



تَسْتَطِيعُ
كُلَّ شَيْءٍ
وَلَا يَعْسُرُ عَلَيْكَ
أَمْرٌ

(أى ٤٤: ٤)

أُقيمت في الكاتدرائية الكبرى بالقاهرة مساء الجمعة ٢٤/٩/١٩٧٦ م.

إن أعمال الله عجيبة ، تدل على قوته الفائقة للعقل... يقف أمامها الإنسان مندهلاً ، لا يملك إلا أن يردد عبارة قالها من قبل القديس أيوب الصديق :

« علمت أنك تستطيع كل شيء ولا يعسر عليك أمر » (أى ٤٢ : ٢) .

إننا نقرأ في الكتاب المقدس عجباً... من قصص المعونة ، وقصص التوبة وتغيير الحياة ، ومن قصص الإيمان أيضاً... حتى ليقف الإنسان مندهلاً ، يقول من أعماقه : من كان يظن ، أن مثل هذا سيحدث ؟ ...

من كان يظن ؟

خذوا كمثال الطفل موسى ...

الطفل موسى

طفل صغير، وُلد في عصر مظلم ، وكان محكوماً عليه بالموت قبل أن يولد ، وقد أخفاه أبواه خوفاً لمدة ثلاثة أشهر ، وإذا لم يستطيعوا إخفائه أكثر ، وضعاه في سفظ (سبت) ، وألقياه عند حافة النهر ، في المياه....

من كان يظن أن هذا الطفل المحكوم عليه بالموت ، والملقى في الماء ، يصير نبي الله العظيم ، وكليم الله...؟!

يصير موسى النبي ، الذى نسبت الشريعة إلى اسمه ، فيقال شريعة موسى ، وناموس موسى... بل يصير رجل المعجزات والآيات ، الذى شق البحر الأحمر بعصاه ، وضرب الصخرة فتفجرت ماء ، وأنزل من السماء المن والسلوى ..!

من كان يظن أن هذا المحكوم عليه بالموت من فرعون ، يعيش أربعين سنة في قصر فرعون ، كأحد الأمراء ، ويدعى ابن ابنة فرعون... ويصبح فيما بعد القوة الجبارة التى يعمل لها فرعون ألف حساب ...

يصير الإنسان الذى يصرخ أمامه فرعون ويقول أخطأت (خر ٩ : ٢٧) ، ويتضرع إليه أكثر من مرة أن يصلى من أجله ، ليرفع الرب عنه الضربات .

من كان يظن أن الطفل الصغير الملقى فى الماء ، يصبح مصيره هكذا ؟ ولكنها يد الله حينما تتدخل فى الأحداث ، وتدبر مصائر الناس ... إنه الله الذى قال له أيوب الصديق « علمت أنك تستطيع كل شىء ، ولا يعسر عليك أمر » .

قصة الطفل موسى تعطينا درساً فى الرجاء ، أن الله يستطيع أن يحول الضعف إلى قوة ، ويغير المصائر حسبما يشاء ...
حقاً إن الله يستطيع أن يعمل أعمالاً عجيبة لا تخطر على بال .

إننا ننظر إلى الحاضر فقط . وقد نرى فيه أموراً صعبة معقدة ، تجلب الحزن أو اليأس . أو قد نرى مخاطر ليس من السهل الخروج منها ... بينما يكون المستقبل ، الذى يسكه الرب فى يده ، هو غير الذى نراه فى الحاضر ، غيره تماماً ، وربما عكسه تماماً .

لنتنا بدلاً من أن ننظر إلى الحاضر المتعب الذى أمامنا ، ننظر بالرجاء إلى المستقبل المبهج الذى فى يد الله ...

الأرض الخربة

* هذا الرجاء وضعه الله أمامنا ، منذ الآيات الأولى التى تتحدث عن قصة الخليقة ، حيث يقول الوحي الإلهي :

« كانت الأرض خربة وخالية ، وعلى وجه الغمر ظلمة » (تك ١ : ٢) .

إنها صورة كئيبة للطبيعة من أول القصة . ولكن ليس من الصالح أن نقف عند حدود هذه الصورة ، فالقصة لم تتم فصولها ...

فمع وجود هذه الصورة الكئيبة ، كان هناك ما يبعث الرجاء ... كانت هناك عبارة « وروح الله يرف على وجه المياه » وماذا أيضاً ؟ « وقال الرب ليكن نور ، فكان نور ، ورأى الله النور أنه حسن » (تك ١) .

وهكذا فتحت أمام الصورة الكثيبة المظلمة نافذة من نور .

وإذا كل شيء قد تغير.. وبدأت يد الله تعمل : تنظم هذه الطبيعة ، وتنسقها ، وتخلق فيها الحياة ، وتضع لها النظم ، وتلبسها ثوباً من الجمال والبهاء ، وينظر الله إلى كل ما عمله ، فاذا هو حسن جداً...

من كان يظن أن الطبيعة الخربة ، الخاوية ، المغمورة بالمياه ، المغطاة بالظلمة ، تتحول إلى هذا الجمال الذى نعيش فيه ، الأشجار والأزهار والأثمار ، والبحار والأنهار ، والطيور والفرشات ذات الألوان ، وجمال السماء والقمر والنجوم ، والجبال والتلال والبحيرات ، جمال يتغنى به الشعراء ، ويبدع فى رسمه الفنانون .

إن قصة الطبيعة فى نشأتها ، فيها رمز ، وفيها رجاء .

إنها رمز لكل حياة خربة وخالية ومظلمة ، وتنتظر فى رجاء قول الرب « ليكن نور» ... تنتظر يد الله فى الأيام الستة ... حتى تتكامل صورتها ، وتنتهى إلى عبارة « حسن جداً» ...

فلا تقف يا أخى عند عبارة « خربة وخالية » وتكتئب .. إنما تطلع إلى المستقبل فى رجاء ، وانتظر الرب ... وفى كل يوم يمر عليك . كلما يقول الوحي الإلهي « وكان مساء وكان صباح » ، اهتف من كل قلبك « يا جميع الأمم صفقوا بأيديكم . هللوا لله بصوت الابتهاج » (مز ٤٦ : ١) ، قد علمت يارب أنك تستطيع كل شيء ، ولا يعسر عليك أمر...

الله قادر أن يغير كل شيء ... إلى أفضل ، وإلى العكس .

وليس المهم عنده البدايات ، إنما ما تنتهى إليه الأمور .

العاقِر

من الآيات الجميلة فى الرجاء ، نشيد العاقِر فى سفر اشعياء :

« ترمى أيتها العاقِر التى لم تلد . أشيدى بالترنم . لأن بنى المستوحشة (التى ليس

لها زوج) أكثر من بنى ذات البعل... أوسعى مكان خيمتك، ولتبسط شقق مساكنك... لأنك تمتدين إلى اليمين وإلى اليسار. ويرث نسلك أمماً، ويعمر مدناً خربة. لا تخافى لأنك لا تخزين» (اش ٥٤ : ١ - ٤).

هناك إذن رجاء للعاقرة، ليس فقط أن تلد، إنما بالأكثر أن يرث نسلها مدناً.

هذه العاقرة ترمز إلى الأمم الذين كانوا غرباء عن الله، مستوحشين.

وترمز إلى كل نفس خاطئة بعيدة عن شركة الروح وثمار الروح. هذه لم يعطها الرب مجرد رجاء أن يكون لها نسل وثمر... إنما قال لها بالأكثر «وسعى خيامك.. ستمتدين يميناً ويساراً».

ليس فقط يكون لك صبر ورجاء، إنما ترنمى.

افرحى بالرجاء. ليس بعقمك، إنما بالوعد الذى سيتحقق.

حقاً يارب أنك تستطيع كل شيء، ولا يعسر عليك أمر.

قصص معونة

★ من كان يظن أن داود الطفل سينتصر على جليات الجبار؟

ولكن داود كان عنده الرجاء، الذى به قال لجليات: اليوم يجسك الرب فى يدي..» (١ صم ١٧ : ٤٦).

ولولا هذا الرجاء ما تقدم داود فى ثقة لمحاربتة. ولم يخف مطلقاً، بينما كان الجيش كله خائفاً.

وبالرجاء دخل مارمرقس كارزاً فى مصر.

لم يكن له فيها شعب ولا كنيسة. وكانت هناك العبادات الفرعونية، واليونانية، والرومانية، والديانة اليهودية، والفلسفة الوثنية، ومدرسة الاسكندرية. وسيف الدولة

الرومانية الحاكمة ، ودسائس اليهود...

من كان يظن أن مرقس الشاب ، ينتصر على كل المعوقات ، وينشر الإيمان في كل مصر؟ حقاً إن الله يستطيع كل شيء ، ولا يعسر عليه أمر . ويعجبني هنا قول الكتاب :

من أنت أيها الجبل العظيم ؟ أمام زربابل تصير سهلاً (زك ٣ : ٧) .

* * *

حقاً ، إننا بالرجاء نرى كل شيء سهلاً .

بالرجاء ، نرى طريقاً مفتوحاً لنا داخل البحر . ونسمع قول موسى النبي : الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون (خر ١٤ : ١٤) .

بالرجاء نثق أن عصا اليشع ، إن وضعت على الغلام سيقوم .

بالرجاء نثق أننا سندخل الأرض ، حتى إن تهنا في البرية أربعين عاماً .

بالرجاء صلى يونان وهو في بطن الحوت . كان له رجاء أنه سيخرج ويعود يرى هيكل الله مرة أخرى (يون ٢ : ٤) .

* * *

بالرجاء بطرس لم ييأس بعد إنكاره .

كان له رجاء أن الرب سيففر ، ويقبله كما كان رسولاً ...

حقاً من كان يظن أن هذا الذي نخاف ، وانكر الرب أمام جارية ، سيمكنه أن يقف أمام رؤساء الكهنة ، ويقول لهم في شجاعة « ينبغي أن يطاع الله أكثر من الناس » (أع ٥ : ٢٩) . ويحتمل من أجل الرب ، ويكرز ويموت شهيداً .

* * *

إن قصص كرازة الرسل - يعطينا دروساً في الرجاء .

اختار الله جهال العالم ليخزي بهم الحكماء (١ كو ١ : ٢٧) .

وهذه الفئة القليلة الضيئلة ، استطاعت أن تقف أمام جبروت الدولة الرومانية ودسائس اليهود . والذين لا قول لهم ولا كلام ، إلى أقطار المسكونة بلغت أقوالهم (مز ١٩ : ٣ ، ٤) . وفي حوالي ٣٤ عاماً ، استطاعوا أن ينشروا المسيحية في كل الشرق

الأوسط، ومصر، وتركيا، واليونان، ورومه، وبقاع كثيرة في أوروبا وآسيا وأفريقيا...

ألا يعطينا هذا رجاء في عمل الله فينا لأجل ملكوته .

من كان يظن أن نحميا الأسير، يأخذ معونة يعيد بها بناء سور أورشليم؟
ولكن الله لا يعسر عليه أى أمر .

حتى إن القى دانيال في جب الأسود ، يمكن أن يرسل الله ملاكه فيسد أفواه
الأسود (دا : ٢٢) ... حتى إن ألقى الفتية في أتون النار، لا يصيبهم ضرر، ويتمشى
الرب معهم وسط النار (دا : ٣١) ... حتى إن ألقى يوسف في السجن، يخرج منه
للحكم .

من كان يظن أن شاول الطرسوسى مضطهد الكنيسة، يتحول إلى أكبر كارز
بالمسيحية، ويتعب أكثر من جميع الرسل (١كو ١٥ : ١٠) .

ومن كان يظن أن أريانوس والى أنصنا، أقسى ولاة ديوقلديانوس وأعتفهم في
تعذيب الشهداء، يؤمن أخيراً ويصير شهيداً... وكذلك لونجينوس الجندى الذى طعن
المسيح بالحربة...

علمت يارب أنك تستطيع كل شىء ، ولا يعسر عليك أمر

حقاً ، إنه من أعظم معجزات الرب ، قدرته على تغيير النفوس .

إن قصص التوبة تعطينا رجاء عجبياً . وهى كثيرة جداً .

من كان يظن أن مريم المجدلية التى أخرج الرب منها سبعة شياطين (لو ٨ :
٤) ، تصير مبشرة للرسل بالقيامة ؟

من كان يظن أن مريم القبطية الزانية تصير من السواح ؟ ونفس الأسلوب نتحدث
به عن أوغسطينوس وموسى الأسود وغيرهما .

كل شيء مستطاع

كون أن الله يستطيع كل شيء (مت ١٩ : ٢٦) ، هذا أمر طبيعي ...

ولكن هوذا بولس الرسول يقول «استطيع كل شيء في المسيح الذى يقوينى»
(فى ٤ : ١٣) . ولكن أكبر آية تدعو إلى الرجاء هى :

« كل شيء مستطاع للمؤمن » (مر ٩ : ٢٣) .

بهذا الرجاء ننال قوة ننتصر بها فى حياتنا .

أما الشيطان فطريقته أن يدفع الناس إلى اليأس ، وإلى الخوف ، والتردد ، والشعور
بالضعف والعجز ، لكى يشل حركتهم ... ويشدهم بثقل الصليب ، ويخيفهم من الباب
الضيق والطريق الكرب ، حتى ما يستطيعون التقدم خطوة واحدة . أما أنت فقل مع
بولس الرسول :

استطيع كل شيء فى المسيح الذى يقوينى .

الذى حوّل الطرسوسى يستطيع أن يحولنى . والذى منح التوبة لاوغسطينوس يمكنه
أن يتوبنى . والذى أعان داود على جليات يمكنه أن يعيننى . والذى قبل المزدرى وغير
الموجود يقبلنى .

الرجاء يعطى قوة على العمل ، وعدم التفكير فى الفشل .

إننا لا نعترف بالفشل إطلاقاً ، مادامت يد الله معنا .

كل شيء يدعو لليأس ، نضع أمامه قوة الله غير المحدودة ، وتدخّل الله بكل محبته
لتغيير الأمور إلى أفضل ..

ما أكثر قول الله : لا تخف . لا تخافوا ...

إنه لم يسمح لموسى أن يخاف من ملاقاته فرعون (خر ٤ .) . ولم يسمح لأرميا أن
يخاف لصغر سنه . وقال ليشوع بن نون بعد موت موسى النبى «لا يقف إنسان فى
وجهك كل أيام حياتك ... لا أهلك ولا أتركك . تشدد وتشجع ... لا ترهب ولا

ترتعب ، لأن الرب إلهك معك » (يش ١ : ٥ ، ٩) ... إن إيمانك بعمل الله معك يعطيك رجاء ثم انظر إلى هذا الوعد العجيب جداً ، في قول الرب :

« من يؤمن بي ، فالأعمال التي أنا أعملها ، يعملها هو أيضاً ، ويعمل أعظم منها » (يو ١٤ : ١٢) .

من نحن يارب أمام هذا الوعد؟ إنه أكبر منا . ولكن عجيبة هي محبتك ووعودك . ولكننا نؤمن بمحبتك وبكرمك في العطاء ، وتدخلك للمعونة ونؤمن أيضاً بأن الحرب للرب (اصم ١٧ : ٤٧) ، والله ليس لديه مانع أن يخلص بالكثير أو بالقليل (اصم ١٤ : ٦) .

الله قادر أن يغلب بجيش يشوع .

وقادر أيضاً أن يغلب بحصاة داود .

مهما كنت ضعيفاً أو صغيراً ، الله قادر أن يعمل بك وفيك ، كما عمل في ارميا الطفل ، وداود الصبي . واستخدم صموئيل الطفل ليبتك به عالي الكاهن العظيم (اصم ٣ : ١٠ - ١٨) .

مادامت الحرب للرب ، اعتمد عليه اذن ، وليكن رجاؤك فيه ، مهما وقفت ضدك خطية أو شهوة ، تجربة أو مشكلة . ومهما وقف ضدك الناس الأشرار .

وتذكر قصص رجال الله ، الذين تقووا من ضعف (عب ١١ : ٣٣ ، ٣٤) وصاروا اشداء في الحرب ، وقهروا ممالك ...

هؤلاء هم جبابرة ، الذين لا يخافون .

لا تضعف . لا تهزك التجارب ولا الضيقات ، ولا الخطايا ولا الشهوات ، ولا الأعداء . كن كالبيت المبني على الصخر ، الذي لم تقو عليه الأمطار ولا الرياح (مت ٢٧ : ٢٥) . كن كالجنادل التي في مجرى النيل ، ثابتة لا تقوى عليها المياه .

ضع أمامك بعض الآيات التي تعزيك وتقويك .

« إن سرت في وادي ظل الموت ، لا أخاف شراً لأنك أنت معي » (مز ٢٣ : ٤)

« إن يحاربني جيش فلن يخاف قلبي . وإن قام عليّ قتال ، ففى هذا أنا مطمئن
(مز ٢٧ : ٣) « مراراً كثيرة حاربوني منذ صباى ، وأنهم لم يقدروا عليّ ... الرب
صديق هو يقطع أعناق الخطاة » (مز ١٢٩ : ٢ ، ٤) . « الفخ انكسر ونحن نجونا .
عوننا من عند الرب ... » (مز ١٢٤ : ٧ ، ٨) « دفعت لأسقط والرب عضدنى . قوتى
من عند الرب » (مز ١١٧) .

تذكر سير القديسين الذين لم يخافوا مطلقاً ، ولم يفشلوا ...





أَبْصَرْتُ
بَابًا مَفْتُوحًا
فِي السَّمَاءِ

قال هذه العبارة وهو في منفاه في جزيرة بطمس ، وفي سفر الرؤيا الذي يقول في أوله «أنا يوحنا أخوكم وشريككم في الضيقة، وفي ملكوت يسوع المسيح وصبره...» (رؤيا : ٩).

وعلى الرغم من أنه كان بعيداً عن كل التعزيات والمعونات البشرية، إلا أن التعزيات الإلهية لم تبتعد عنه. فرأى السيد في تلك الجزيرة، وتسلم منه رسائل. ثم يقول بعد تلك الرؤيا :

« بعد هذا أبصرت ، وإذا باب مفتوح في السماء... وإذا عرش موضوع في السماء...» (رؤيا : ١ ، ٢). إنها تعزية عجيبة لهذا الرسول العظيم ، وهو في ضيقته وفي منفاه ، تذكرنا بقول الرب لملاك كنيسة فيلادلفيا :

هأنذا قد جعلت أمامك باباً مفتوحاً ، ولا يستطيع أحد أن يغلقه » (رؤيا : ٣ : ٨).

إنها كلمة من الله الذي يفتح ولا أحد يغلق ، ويغلق ولا أحد يفتح » (رؤيا : ٧).

كلمة عزاء ، كلما نتذكرها فتلىء بالرجاء ، ونجد فرحاً بهذا الباب المفتوح في السماء .

* * *

حقاً حينما تنغلق جميع الأبواب ، يبقى باب الله مفتوحاً ، ولا يستطيع أحد أن يغلقه ...

وهكذا يطمئن الإنسان مهما كانت جميع الأبواب مغلقة في وجهه . فالله الحنون المحب يمكنه أن يفتح ، ولا أحد يغلق ... من أجل هذا يعيش أولاد الله في فرح كامل ، لا تهتز ثقتهم بأية ظروف خارجية ضاغطة ...

ويقدم لنا الكتاب مثال داود النبي ، وهو مطارد من شاول الملك :

شاول بكل سلطانه ، وكل قسوته ، وكل حيله ، وكل كراهيته لداود ، كان يطارده من بركة إلى أخرى ، ومن مغارة إلى أخرى ، يريد قتله ، ويحيك حوله المؤامرات . ومع ذلك حفظ الرب داود ، وبقي حياً . ومات شاول الملك دون أن يؤذيه .

وكذلك لم يقدر على إيدائه أبشالوم بكل خيائه ...

ذلك لأن الله كان قد جعل أمام داود باباً مفتوحاً ، دخل منه إلى المجد ، متذكراً خبراته الكثيرة في قيام الأعداء ضده ، حتى أنه قال ذات مرة « يارب لماذا كثر الذين يحزنونني ... كثيرون قاموا عليّ . كثيرون يقولون لنفسي : ليس له خلاص بإلهه (مز ٣) . بل أنه قال : « أكثر من شعر رأسي ، الذين يبغضونني بلا سبب » (مز ٦٩ : ٤) .

ونحن نسأل « وماذا فعلت أمام كل أولئك يا داود ؟ وهل حطموا حياتك ؟ ! » يجيب « الرب هو ناصري . مجدى ورافع رأسي . بصوتى إلى الرب صرخت ، فاستجاب لي من جبل قدسه » (مز ٣) « نظرت ، وإذا باب مفتوح في السماء » .

هؤلاء الكثيرون الذين قاموا على داود ، لم يستطيعوا أن يغلّقوا هذا الباب المفتوح أمامه من الرب . ألسنت تستطيع أن تخرج من هذه القصة بقاعدة روحية وهي :

إن حياتك هي في يد الله . وليست في أيدي الناس ...

لقد قال عيسو « أقوم وأقتل يعقوب أخى » (تك ٢٧ : ٤١) . ولكنه لم يستطع لأن يعقوب أبصر ، وإذا باب مفتوح في السماء . وقد رأى سلماً بين الأرض والسماء ، وملائكة الله صاعدة ونازلة عليها (تك ٢٨ : ١٢) . من أجل هذا حدث أنه في رجوعه « ركض عيسو للقائه ، وعانقه ، ووقع على عنقه وقبله ، وبكيا » (تك ٣٣ : ٤) .

حقاً إن الله يستطيع أن يغير المواقف ، ويغير القلوب .

وكما قال الكتاب « إذا ارضت الرب طرق إنسان ، جعل أعداءه أيضاً يسالمونه »

(أم ١٦ : ٧) . وحتى إن لم يسالموه ، فلن يقدرُوا عليه ، كما قال الرب لأرمياء النبي « يحاربونك ولا يقدرُونَ عليك ، لأنى أنا معك ، لأنقذك » (أر ١٩ : ١٩) .

ما أكثر الذين قاموا على رسل المسيح وتلاميذه !

قام ضدهم الكتبة والفريسيون والصدوقيون ، وكهنة اليهود ورؤساء كهنتهم وشيوخ الشعب ، وولاة الرومان وحكامهم ... وألقوهم في السجون ، وجلدوهم . ولكن الله كان قد جعل أمامهم باباً مفتوحاً ، فانتشرت الكرازة في كل مكان . و«الذين ليس لهم صوت ولا كلام ، إلى أقطار المسكونة بلغت أقوالهم» (مز ١٩ : ٣ ، ٤) ، حتى «الذين تشبثوا ، جالوا مبشرين بالكلمة» (أع ٨ : ٤) .

كانت كل الأبواب مغلقة أمامهم . ولكن باب الله كان مفتوحاً . وهذا يكفى . لذلك نصيحتى أقولها لكل إنسان تواجهه متاعب وضيقات وتعقيدات .

لا تنظر إلى الأبواب المغلقة ، إنما أنظر إلى المفتاح الذى فى يد الله .

إنه يستطيع أن «يفتح ولا أحد يغلق» . هو القادر على كل شيء ، وهو الذى يحبك ويحب لك الخير . كل الذين يقومون ضدك ، قوتهم محدودة كبشر . حتى الشيطان أيضاً ، قوته محدودة كمخلوق . أما الله فغير محدود ، وقوته غير محدودة . لذلك فإن الله غير المحدود ، قال لبولس الرسول «تكفيك نعمتى» (٢كو ١٢ : ٩) .

إنها نعمة الله القادرة أن تفتح لك فى البحر طريقاً (خر ١٤) وتفجر لك من الصخرة ماء (خر ١٧ : ٦) ، وتهدم أمامك جبلاً . كما قال الرب عن معونته لعبده زربابل «من أنت أيها الجبل العظيم . أمام زربابل تصير سهلاً» (زك ٤ : ٧) .

يعوزنا الوقت إن تحدثنا عن قصص القديسين مع باب الله المفتوح :

هل أتحدث عن القديس أثناسيوس الرسولى ، الذى قيل له «العالم كله ضدك يا أثناسيوس» ومع ذلك وقف ضد العالم الهرطوقى وانتصر ، لأن الرب جعل أمامه باباً مفتوحاً .

أم اتحدث عن نحميا ، الذى فتح الله له باباً عجيباً ، فإذا بملك أمى يزوده بكل الامكانيات ليعيد بناء اورشليم ، ويتحول من إنسان فى السبى ، إلى حاكم فى مدينة الله ...

أم أتحدث عن لعازر الدمشقى ، وكيف أرشده الرب إلى رفقة . ليختارها زوجة لأسحق ابن سيده ، بارشاد إلهى عجيب !! حتى قال « لا تعوقونى والرب قد انجح طريقى » (تك ٢٤ : ٥٦) .

كذلك ما أكثر الأبواب المفتوحة للتوبة ...

من كان يظن أنه سينفتح باب للتوبة أمام مريم القبطية التى أعثرت المئات وأسقطتهم . ولكن الله فتح أمامها باباً بمعجزة ، لمست فيها يد الرب وتابت ...

ومن كان يظن أنه سينفتح باب أمام أوغسطينوس وبيلاجية وموسى الأسود ، بعد أن وصلت حال كل منهم إلى وضع سىء للغاية فى البعد عن الله ...

وهكذا أيضاً شاول الطرسوسى مضطهد الكنيسة .

من كان يظن أنه سيتحول إلى رسول وإناء مختار للرب ، هذا الذى كان ينفث تهديداً ، ويجر رجالاً ونساء إلى السجن (أع ٩ : ١ ، ٢) . وإذا باب فى السماء ينفتح أمامه وهو فى الطريق إلى دمشق ، برؤيا عجيبة ، كلمه فيها الرب ، فأمن وتحول إلى العكس ، وتعب أكثر من جميع الرسل ، ونال اكليل الشهادة ...

كذلك الأمم فتح لهم الله باباً للتوبة والقبول ...

وكانوا معتبرين غرباء ، أجانب عن رعوية الله ، فصاروا هم الزيتون الجديدة التى طعمت فى الزيتون العتيقة . وأصبحت الغالبية العظمى من المؤمنين تابعة من هؤلاء الأمم وانفتح الباب بمعجزة أمام كرنيليوس (أع ١٠) ثم أمام الكل (أع ١٥) .

ماذا أقول عن أمثلة عجيبة امتدحها الكتاب :

أرملة صرفة صيدا التى أطعمت إيليا ، والمرأة الكنعانية التى شفى السيد المسيح

إبنتها ، وراحاب الزانية ، وراعوث ، ومملكة سبأ التي جاءت من أقاصى الأرض لتسمع
حكمة سليمان ... كل أولئك اللائى تسجلت أسماؤهن فى التاريخ ، وطوبهن
الكتاب ، لمجرد أن الله جعل أمام كل واحدة باباً مفتوحاً .

بل ماذا أقول عن يونان النبى الذى ابتلعه حوت ؟!

من كان يظن أن مثل هذا يمكنه أن يخرج من جوف الحوت ، ويحيا ، ويبشر
نينوى ، وتؤمن على يديه ؟! ولكن الحل الوحيد أن الله قد جعل أمامه باباً مفتوحاً ،
ففتح الحوت فاه ، وألقاه إلى البر ، ليؤدى رسالته !! حقاً كما يقول الكتاب :

« غير المستطاع عند الناس ، مستطاع عند الله » (لو ١٨ : ٢٧) .

إن الله قادر على كل شىء . وإن اعتمدت عليه تحيا فى رجاء ثابت لا يتزعزع . هو
قادر أن يفتح الأبواب المغلقة ، ويحل كل المشاكل المعقدة . بيده كل المفاتيح ، « يفتح
ولا أحد يغلق » وهناك مثل عجيب لباب مغلق فتحه الله :

لقد فتح الرب باب الفردوس بعد آلاف السنين ...

وهكذا أدخل فيه آدم وحواء ، بعد أن طردا قديماً من الجنة ، وأدخل فيه كل
الراقيدين على الرجاء ، وجعل هذا الباب مفتوحاً أيضاً أمام اللص اليمين ، وأمام جميع
التائبين ، لكى يصيروا جميعاً فرحين فى الرجاء (رو ١٢ : ١٢) .

لكل هذا ، اطلب من الرب أن يفتح أمامك الأبواب :

قبل أن تخرج من بيتك كل يوم ، اطلب من الرب أن يفتح أمامك كل القلوب ،
وكل الآذان ، وأن يفتح أمامك أبواب الرزق وأبواب الخير . وما أجل تلك الصلاة
التي يصليها الآب الكاهن أمام الهيكل ويقول :

« أجعل باب بيتك مفتوحاً أمامنا فى كل زمان ... »

ويقول أيضاً « لا تغلق باب بيتك فى وجوهنا » .

بل فى كل يوم يصلى كل منا ويقول « افتح يارب شفتى ، فيخبر فمى

بتسبحتك» (مز ٥٠). ذلك لأننا لا نضمن إن فتحنا أفواهنا من ذواتنا ، أى كلام سنقوله ؟ وهل سيكون مرضياً أمام الله أم لا يكون ؟ وماذا ستكون نتائجه ؟ ...

ولعل من الصلوات العجيبة التى صلاحها أليشع النبى لأجل تلميذه جيحزى هى قوله :

« افتح يارب عيني الغلام فيرى » ... (٢مل ٦ : ١٧) .

فيرى أن الذين معنا أكثر من الذين علينا ، فيطمئن ، ويؤمن . نعم نحن لنا عيون ولكنها لا تبصر ، وآذان ولكنها لا تسمع ... وتحتاج أن يفتح الرب عيوننا وآذاننا وقلوبنا أيضاً .. ألسنا نقول فى صلواتنا « اكشف عن عيني فأرى عجائب من ناموسك » (مز ١١٩) .

وبعد ، أترانا قلنا كل ما يفتحه الله أمامنا ؟ كلا ، بلاشك ... فالموضوع أطول من أن يسعه مقال ، عن الله الذى قال :

افتح لكم كوى السماء ، وأفيض عليكم بركة ، حتى لا توسع » .

باب الله مفتوح أمامنا على الدوام ، مهما أغلقت باقى الأبواب .

يقول لنا كما قال لملاك كنيسة فيلادلفيا « هأنذا قد جعلت أمامك باباً مفتوحاً ، ولا يستطيع أحد أن يغلقه » (رؤ ٣ : ٨) . هذا هو قلب الله الحنون ، الذى ازال الحجاب الحاجز ، وفتح الطريق إلى قدس الأقداس ، وفتح باب الفردوس أمام آدم وبنيه .

إنها عبارة معزية ، نذكرها فى بدء العام الجديد .

مهما ضاقت الدنيا أمامك ، ومهما تعقدت السبل ، وأغلق الناس قلوبهم وأحشاءهم ، ودعوت وليس من مجيب ، وبحثت وليس من صديق ، حينئذ تتعزى بقول القديس يوحنا الحبيب ، « نظرت وإذا باب مفتوح فى السماء » .

يقولها لكل من فى ضيقة ، ولكل خاطيء أتعبته الخطية .

لكل خاطيء سيطرت الخطية عليه ... حاول أن يتخلص منها مراراً ولم يستطع ،
وكاد ييأس ... طرق باب التداريب الروحية ، وكل جهاد شخصي . وطرق أبواب
الصوم وضبط النفس ... ولم يجد طريق التوبة مفتوحاً أمامه ... حينئذ يرفع هذا
الخاطيء نظره إلى فوق ، ويقول « رأيت باباً مفتوحاً في السماء » ، « عونى من عند
الرب الذى صنع السماء والأرض » (مز ١٢١ : ٢) .

* * *

المهم فى مشاكلنا أن نرفع نظرننا إلى فوق ، إلى السماء لكى نرى الباب
المفتوح ، فنتعزى ...

مشكلتنا أننا فى كل ضيقاتنا ، نتجه إلى المعونة الأرضية ! نتجه إلى ذكائنا
وحيلنا ، وإلى الذراع البشرى فى مساعدة الناس لنا . نتجه إلى الظروف والامكانيات .
وبسبب هذا نقع فى الحيرة والقلق والاضطراب . ولكن كل هذا يزول ، ونطمئن ، إن
رفعنا نظرننا إلى فوق ، لئرى الباب المفتوح فى السماء ، كما فعل القديس يوحنا
الحبيب ، شريكنا فى الضيقة ...

* * *

لاحظوا أنه رأى هذا الباب المفتوح ، دون أن يطلب .

لم يفتح هذا الباب بصلواته ، إنما هو باب مفتوح بطبيعته مفتوح بالحب
الإلهى ...

لم يقل يوحنا « افتح لى باباً فى السماء ، لأرى عرشك وجندك . إنما أراه الله كل
هذا من حنانه ، لكى يعرف أن عطايا الله إنما تنبع من محبته ومن أنعامه ... حقاً إنه
يقول بالنسبة إلى التعابى « اقرعوا يفتح لكم » . لكنه يقول للذين يحميون فى الإيمان
« وكل هذه تزدادونها » (متى ٦ : ٣٣) . تأتیکم بدون طلب ، من الآب السماوى
الذى يحب أولاده ويعرف احتياجاتهم ...

* * *

هذا الباب يفتحه الله ، ولا يستطيع أحد أن يغلقه .

حسب وعده الأمين ... ذلك لأنه « يفتح ولا أحد يغلق » (رؤ ٣ : ٧) . فإن فتح

أمامك باباً ، تجد كل أمورك ميسرة ، « لا يقف أحد في وجهك » (يش ١ : ٥) . « ولا يقع بك أحد ليؤذيك » (أع ١٨ : ١٠) . وأبواب الجحيم لن تقوى عليك (متى ١٦ : ١٨) .

إذن لا تضع وقتك منقباً في الأرض ، تحفر لك آباراً مشققة لا تضبط ماء (ار ٢ : ١٣) . إنما يكفي أن تضمن المعونة الإلهية ، تضمن الباب السماوى المفتوح ، وحينئذ يصير لك كل شيء ...

هذا الباب المفتوح رآه يوحنا وهو في ضيقة منقباً في جزيرة بطمس ، ومضطهداً لأجل الكلمة .

في وقت لم يكن يجد فيه على الأرض حناناً ولا عدلاً ، ولم يجد من البشر معونة ولا سنداً ... حينما بدا أن كل إنسان قد تخلى عنه ، أو عجز عن معونته ، فترك إلى أعدائه يحكمون عليه ... في هذا الوقت الذى أغلقت فيه أبواب الأرض ، نظر وإذا باب مفتوح في السماء ، وسمع صوتاً يقول له « اصعد إلى ههنا فأريك ... » وأراه عرش الله في الرؤيا ، وقوات السماء ...

عجيب هو الله حقاً في عمق عطاياه ، الله المقيم المسكين من التراب (مز ١١٣ : ٧) .

ولعل القديس يوحنا كان يقول للرب : من أنا يارب الذى تصنع معى كل هذا ، أنا البائس الملقى في هذه الجزيرة النائية ، أنا غير المستحق أن أرى عرش الأباطور تراجان ، كيف استحق أن أرى عرش ملك الملوك ورب الأرباب؟! . نعم تعال يا يوحنا واصعد لترى هذا العرش ، لكى تعرف أن كل أباطرة الأرض هم حفنة من تراب ... ! ويقف أمامنا سؤال :

كيف صعد يوحنا إلى السماء ، ليرى هذه الرؤيا ؟

هنا تقف اللغة عاجزة ... نعم كيف صعد ؟ أنا لست بمستطيع أن أجيب ... أفضل أجابة هي أن أقول : لا أعرف ... لست أجد ألفاظاً في اللغة العربية ، ولا في أية لغة أخرى تستطيع أن تعبر عن هذا المعنى ... لذلك اكتفى بأن أتركه إلى تأملاتكم الخاصة .

« اصعد إلى هنا » . هذا أمر . كيف نفذه يوحنا ؟ أو كيف نفذ في يوحنا ؟
كيف صعد إلى السماء ؟ وكيف دخل من هذا الباب المفتوح ؟ وكيف رأى ؟ بالعين
أم بالروح أم بعين روحية ؟ وكيف ؟ ... المهم أن الله حول ضيقته إلى فرح ، وجهله إلى
معرفة ، ونفيه إلى ترقية وإنعام ، وأعطانا عربوناً لحياة أخرى ستكون بعد القيامة ،
ومنحنا نحن رجاء في تلك الحياة ...

كل هذا حدث ليوحنا ، وهو في المنفى ...

لم تحدث هذه الرؤيا وهو في أورشليم ، مدينة الملك العظيم ، ولا وهو في الهيكل
ولا حتى في قدس الأقداس ، ولا إلى جوار تابوت العهد ليس في كل تلك الأماكن
العظيمة والمقدسة ، حيث ينتظر الإنسان أن يرى رؤى ...، إنما في الضيقة ، وفي
المنفى ...

* * *

حقاً ، إن ملكوت الله لا يأتي بمراقبة (لو ١٧ : ٢٠) .

إننا لا نعرف متى ولا أين يفتقدنا الله بنعمته ، بعمل روحه القدوس . لا نعرف
متى تفتح السماء أبوابها ؟ ومتى يأتينا الصوت كبوق ، أو كريح عاصف ، أو كصوت
مياه كثيرة ...؟ إنه لا يأتي بانتظارنا أو توقعنا ، أو مراقبتنا ... لسنا نعرف متى يأتي
الرب لمعاونتنا ، ومتى يعلن لنا .

المهم أن نكون مستعدين لعمل الروح فينا ...

نفتح نحن قلوبنا ، فيفتح لنا الرب باباً في السماء .

نصعد بأرواحنا إلى السماء ، بينما أجسادنا لا تزال على الأرض ، حينئذ يصعدنا
الرب إلى السماء ، حتى لوبقينا ظاهرياً على الأرض ... « في الجسد أم خارج الجسد ؟
لست أعلم . الله وحده يعلم » (٢ كو ١٢ : ٣) . هنا ونقول أن رؤيا يوحنا تحمل لنا
أعظم رجاء مفرح ، وهو :

* * *

أن أبواب السماء صارت مفتوحة . وقد رآها القديس اسطفانوس الشماس

من قبل :

وذلك حينما حنق عليه اليهود ليقتلوه . يقول الكتاب : «أما هو فشخص إلى السماء ، وهو ممتلىء من الروح القدس . فرأى مجد الله والرب يسوع عن يمين الله ، فقال : ها أنا انظر السموات مفتوحة ، وابن الإنسان قائماً عن يمين الله » (أع ٧ : ٥٥ ، ٥٦) .

هذه السماء المفتوحة أمامنا هي أملنا الكبير الذي نسعى إليه لكي نرى فيها مجد الله ونبصر الرب يسوع .

رآها اسطفانوس أول الشمامسة ، ورآها يوحنا الحبيب ، مفتوحة . وأبصراً شيئاً من المجد العتيد ، كعربون للملكوت الأبدى ... والعجيب أن كلاهما قد رآها وهو في ألم واضطهاد ، مردولاً من الناس ، أحدهما في وقت رجعه ، والآخر أثناء نفيه ... وذلك لكي نفهم أن طريق هذه السماء هو الصليب ، وأنه «بضيقات كثيرة ينبغي أن ندخل ملكوت الله» (أع ١٤ : ٢٢) .

* * *

وقبل اسطفانوس ويوحنا ، أبصر السماء حزقيال النبي :

رأى عرش الله محمولاً على الكاروبيم (حز ١) . ورأى هذا المنظر حينما كان ضمن المسييين ، عند نهر خابور . وقال في ذلك «كان ... وأنا بين المسييين عند نهر خابور . أن السموات انفتحت . فرأيت رؤى الله ...» وشرح ما رآه ، ... ثم قال «هذا منظر شبه مجد الرب . ولما رأيت خررت على وجهي وسمعت صوت متكلم ...» (حز ١ : ٢٨) . عجيب أن يرى هذه الرؤيا وهو في السبي ... كيوحنا في النفي .

بنفس الوضع رأى دانيال النبي شبه المنظر وهو في السبي :

رأى ابن الإنسان وهو على سحاب السماء ، أمام الآب ، وقد أعطى سلطاناً ومجداً وملكوتاً ، لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة . سلطانه سلطان أبدى ما لن يزول ، وملكوته ما لا ينقرض (دا ٧ : ١٣ ، ١٤) . ورأى رؤى أخرى ، وأرسل له الله الملاك جبرائيل ليفسرها له (دا ٨ : ١٦) .

كل هذه الرؤى ، رآها انبياء وقديسون في ضيقاتهم .

سما الله وعرشه رآها يوحنا في النفي ، اسطفانوس قبل رجعه . وحزقيال ودانيال

وهما فى السبى . ولا شك أن هذه المناظر التى يسمح الله لقديسيه أن يروها أثناء ضيقاتهم لأجل اسمه ، إنما هى لون من العزاء الإلهى أثناء الآلام ...

* * *

وأنتم أيها الأخوة ، هل رأيتم هذه السموات المفتوحة ؟ أم أن لكم عيوناً ولكنها لا تبصر؟

وإن كان كذلك ، فمتى تنقش تلك الغشاوة عن أعيننا ، حتى نرى ما يمكن أن يراه الروحانيون ... كاشخاص فى الجسد ، نحن لا نرى ، ولكن متى صرنا فى الروح ، مثلما كان يوحنا « فى الروح فى يوم الرب » (رؤى : ١٠ : ١٠) ، حينئذ سنرى .

طالما عيوننا مشغولة بالجسد وبالمادة وبالعالم ، ومغلقة بالهولانيات ، فلا يمكن أن ترى الروحيات .

السماء المفتوحة رآها القديسون فى ضيقاتهم ، أما المترفون الذين يعيشون فى المتعة والفرح واللذة ، فإنهم لا يشعرون بالحاجة إلى باب مفتوح فى السماء ! وإن طلبوا من الله ، فيقولون : افتح لنا أبواباً على الأرض ، فالسما لم يأت موعدها بعد ... افتح لنا أبواب الكنوز والرزق والترقيات . هؤلاء المترفون ، أخشى أنهم فى السماء أيضاً سيسمعون تلك العبارة المخيفة « الحق أقول لكم إنكم قد استوفيتم أجركم » (متى ٦ : ٥) .

ومثل المترفين ، كذلك لا يطلب المنشغلون باباً فى السماء .

إن كل تفكيرهم مركز فى العالم وفى الأرضيات . ليس لديهم وقت ولا رغبة لكى يرفعوا نظرهم إلى فوق . مثاهم ذلك الغنى الغبى ، الذى قال « أهدم مخازنى ، وأبنى أعظم منها ، وأجمع هناك جميع غلاتى وخيراتى ، وأقول لنفسى : يا نفسى لك خيرات كثيرة موضوعة لسنين عديدة . فاستريحى وكلى واشربى وافرحى » (لوقا : ١٢ : ١٨ ، ١٩) .

* * *

إذن علينا أن نرتفع فوق الأرضيات ، لنرى الباب السماوى المفتوح ...

مثال ذلك : فلك نوح الذى تغرب عن العالم ، وارتفع فوق المياه التى غطت كل شىء . وفتح أبونا نوح فيه طاقة ، تشبه الباب المفتوح فى السماء . وخرجت من الطاقة حمامة جاءت بغصن زيتون ، رمزاً للسلام الإلهى فى الأرض الجديدة التى باركها الرب ...

إن لم تستطع أن ترتفع فوق الأرضيات بصفة دائمة ، فليكن ذلك على الأقل فى فترات ، كيوم الرب .

لقد منحك الرب هذا اليوم ، ليكون لك معه ، تنحل فيه من الأرضيات ، لكى ترتبط بالواحد الذى هو الله : تفكر فيه ، تكلمه ، تستمع إلى صوته فى قلبك ، وقد تطهر ذهنك - ولو مؤقتاً - من كل ما هو مادى ... حينئذ ستبصر الباب .



فهرست

صفحة

| | |
|-----|------------------------------|
| ٥ | المقدمة |
| ٧ | الرجاء |
| ١٩ | كل الأشياء تعمل معاً للخير |
| ٣١ | تعالوا إليّ يا جميع المتعبين |
| ٤١ | سعى الله لخلاصنا |
| ٥٩ | اهتمام الله بالأشياء الصغيرة |
| ٨١ | الله حنون وعطوف |
| ٨٩ | احفظك حيثما تذهب |
| ١٠٣ | دون أن نطلب |
| ١٢١ | الله يعمل معنا |
| ١٢٩ | انتظر الرب |
| ١٤١ | شجعوا صغار النفوس |
| ١٥١ | الله الذي يبدأ |
| ١٦١ | نهاية أمر خير من بدايته |
| ١٦٧ | لا يعسر عليك أمر |
| ١٧٧ | باب في السماء |
| ١٩٠ | مؤلفات قداسة البابا شنودة |
| ١٩٢ | فهرست |

في الكتاب

نسم الآب والابن والروح القدس
الإله الواحد آمين

هذا الكتاب (ساعة الرجاء) هو الجزء
الثاني من مجموعة «زياد والرجاء والمحبة» .
وقد صدر الجزء الأول منها عن (حياة
الإيمان) .

تجد فيه ١٥ محاضرة عن الرجاء ، استرناها
لك من بين المحاضرات عديدة جداً التي بناها في
هذا الموضوع العام ، ويرجو أن أسبب الرب
وبشأن أن نشر الرافعي في مناسبات مقبلة ...

لا تدع الشيطان يحاربك في يوم ما يتفزع
الرجاء والمدحول في اليأس ، وياكده أنه :

كل مشكلة لها حل أو حلوله ،

والله قادر على حل كل المشاكل ، وعلى
فتح كل باب معلق ...

ولكن الله معك في كل خسفة ، ينف بل
جوارك و ينفذك ...

البابا شنودة الثالث